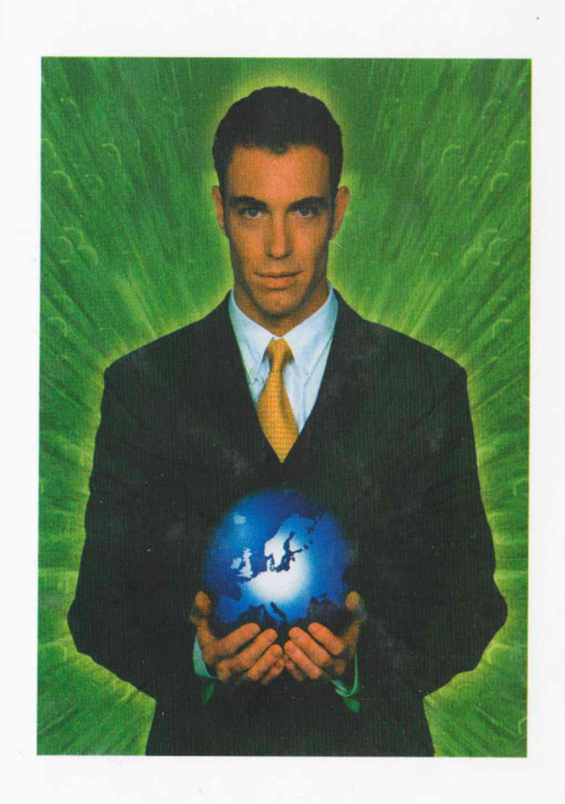
سلسلة ثقافة الحياة





كيف تستخدم طاقاتك؟



تأليف:
هادي المدرسي



كيف تستخدم طاقاتك ؟

سلسلة ثقافة الحياة

1

كيف تستخدم طاقاتك ؟

تأليف:

هادي المدرسي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م



المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



إهتم بأعجب ما فيك..

هل سألت نفسك يوماً: ما هو أعجب ما في نفس الإنسان؟

قد تقول: إنه العقل، فالإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل، وعن طريقه يستطيع أن يصعد إلى عنان السماء ويغوص في أعماق البحار.. إلّا أن العقل ليس أعجب ما في الإنسان حتماً ـ بالرغم من أهميته وفضيلته ـ لأن العقل غير قادر على التحكم في تصرفات الإنسان.

فكم من امرئ يأمره عقله بشيء وهو يعمل بخلافه، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «كم من عقل أسير عند هوى أمير»[1].

---

(١) غرر الحكم، ص ٦٤، ح ٨١٩.

وقد تقول: إن أعجب ما في الإنسان هي روحه التي بين جنبيه، إذ لا قيمة لأحد من دون الروح، وبمجرد أن تخرج الروح من الجسد، يتحول إلى تراب تذروه الرياح السافيات.

ومع أن الروح هي أساس الإنسان بالفعل، إلّا أن الروح ليست أعظم ما فيه، لأن الروح في حقيقتها تتصرف حسب أمر آخر وهو الإرادة. إن الإرادة في الإنسان هي الحاكمة على كل شيء فيه فهي تتحكم في عقله وأفعاله وتصرفاته، وهي تقود جسمه وروحه إمّا إلى خير وإمّا إلى شرّ.

فالإرادة هي التي تأمر العقل بالتفكير، ومن دون أن تفرض الإرادة على الإنسان بأن يعمل بما يطلبه العقل فإنه لن يعمل به. إن الناس بالإرادة يختارون، وبها يعملون وينتجون. وحينما تضعف الإرادة فلا شيء يمكنه أن يقويها غير ذاتها.

فلا تقوّى الإرادة إلّا بالإرادة، ومن لا يريد لنفسه أن

يمتلك إرادة قويّة في الحياة، فلن تكون له إرادة قويّة في الحياة.

ولقد أعطى الله عزّ وجلّ الإنسان حرية الاختيار، ومنحه العقل لكي ينتخب الخير على الشر، والصلاح على الفساد، والحق على الباطل، والجنة على النار. فإذا لم يفعل فهو المدان، وإذا فعل إستحق الأجر والثواب.

ألا ترى كيف أن أعظم شيء، وأفضل ما يمكن أن يحصل عليه أحد في حياته على هذه الأرض، وهو (الإيمان) لا يمكن تحصيله إلّا بالإرادة؟

فالإرادة هي الحاكمة على كل شيء في الإنسان: على عقله، وحياته، وأفعاله، وتصرفاته، ومواقفه، لأنها هي التي تأمر العقل بالتفكير أو تنهاه عن ذلك.

وبالإرادة يطيع الإنسان عقله أو لا يطيع، وبها يختار، وبها ينتج، وإذا ضعفت فلا شيء يقوم مقامها.

فهو بالإرادة قادر على أن تكون له إرادة قوية، وهكذا فإن الإرادة تقوّي العقل، والعلم، ونفسها أيضاً.

ثم إنّ الإرادة جهدٌ متواصل يقاوم به الإنسان الصفات السيئة في نفسه، وبها يكافح من أجل إنجاح أهدافه، ويوطِّد القيم في ذاته.

إن قوة الإرادة هي أولى مظاهر قوّة الشخصيّة، وقد تصل درجات القوة فيها إلى حد إختيار صاحبها أصعب الطرق وأعسرها على النفس، وذلك لأغراض معنوية مثل فعل الخير أو كبح جماح الشهوات.

وفي تعريف الإرادة ينبغي أن نقول: إننا نحس بالإرادة ونعرفها جيداً، ولكننا لا نستطيع أن نفسّرها بالضبط، غير أن عبارة «الرغبة الشديدة في تحقيق الشيء مع وجود قرار لتلبية تلك الرغبة في مجال العمل» قد تكون أقرب التعابير عن معنى الإرادة.

وبالطبع فإن الإرادة لابدّ أن تُشفّع بالصبر، وحسب

تعبير أحدهم فإن الإرادة هي تربية النفس على الحزم الثبات، والإقدام على الأعمال الممكنة حتى تحقيقها، فإذا تلاقحت الإرادة بالصبر، فإن ما يعتبر عند كثيرين مستحيلاً، يصبح ممكناً لدى من يملكها.

إن الإرادة صورة الحياة الشاملة، فإن ساءت الإرادة ساءت الحياة، وإن حسُنَت حسُنَت الحياة.

من هنا فلا نجاح بدون إرادة، ولا فشل بدون إرادة. فالنجاح والفشل نتاج إرادتين متناقضتين.

فمن يسعى للنجاح ينجح، ومن يسعى للفشل يفشل.

وهكذا فإن إرادتك هي أخطر، وأعز، وأهم ما فيك، وكلّما تعزَّزت عندك الإرادة كلّما تعزَّز موقفك في الحياة، وموقفك في المجتمع، وقيمتك في مقياس القيم.

وكلّما ضَعُفت الإرادة فيك، ضَعُفَ موقفك وموقعك، ولم تعد قادراً على التمسك بمبدأ معيّن،

وتصبح حياتك حينئذ مثل سفينة هاجمتها العواصف في وسط البحر من دون أن تملك قوة الدفع، فهي تميل ذات اليمين وذات الشمال من دون هدى.

ومن هنا فإن الإرادة التي تستنجد بنور العقل، هي التي تحقق الخير في الحياة، وتختار الحق على الباطل، والصلاح على الفساد، والإيمان على الكفر، والحقيقة على الزيف، والطاعة على المعصية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الصراع بين الخير والشر هو صراع مستمر في الحياة، وبه يُفتتن الإنسان ويُمتحن، فإن اختلاف إرادات الناس في نصرة الحق أو الباطل هو الذي يُميِّز بعضهم عن بعض.

فالذين يهتدون بهدى عقولهم في الحياة وينفّذون بإرادتهم تعليماته وإرشاداته، هم أصحاب الفضيلة، المتميزون بالحقيقة، الناجحون في ميزان القيم.

أما أولئك الذين يخالفون هدى العقل وينساقون وراء

الجهالة.. ممن يُهملون عقولهم ولم يستنجدوا بإرادتهم، فهم أصحاب إرادة ضعيفة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

من هنا فإن الحياد بين الحق والباطل: باطل، لأن ذلك إما نابع من ضعف الاستهداء بالعقل، أو من ضعف الإرادة.

فالحق لا يَسمح لأحد بالانسلاخ عنه ليكون على الحياد بينه وبين الباطل رغبة في الدعة والأمن، أو رهبة من المشاكل والمصاعب بدل التمسك بالحق وتحمّل ما يترتّب على ذلك، لأن هذا الانسلاخ تضعيف للحق، ومَن يكون سبباً لضعف الحق فهو من أعدائه.

ذلك أن أهل الباطل لا يريدون بالضرورة أن يكون الناس معهم في مواقفهم، وإنما يكتفون منهم أن لا يكونوا ضدهم لمصلحة الحق.

ألا ترى كيف أن الطغاة يسعون دائماً إلى تحييد الناس لكي لا يدافعوا عن ضحاياهم؟ فمن يسرق داراً لا

يطلب من الجيران المساعدة له في ذلك، بل يكتفي بأن يسكتوا على جريمته.

لذلك كان الصمت على الجريمة، جريمة.. والحياد في الصراع بين الحق والباطل، باطلاً.. والسكوت على الظلم، ظلماً.

وكما يقول رسول الله ﷺ: «فإن الأشياء إمّا حق وإمّا باطل، وما بينهما باطل».

إن البعض يُحبّذ أن يجمع بين الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والفساد، فهو تارة مع هذا وتارة مع ذاك، ومثل هؤلاء يميلون مع كل ريح، أتباع كل ناعق، ويعتبرون ذلك من الحياد الإيجابي الذي لا يرفض أحد الأمرين لمصلحة الآخر.

وبعضهم يفضّل الحياد السلبي أي الانعزال عن معركة الحق والباطل، والابتعاد عن الصّراع بينهما على قاعدة: (ما لنا والدخول بين السلاطين) أو على قاعدة:

(لقد سَلِمَت منهم سيوفنا، فَلتَسْلم منهم ألسنتنا).

إلّا أن ذلك يعني في كلتا الحالتين نصرة الباطل، وذلك نابع إما من إهمال العقل أو من ضعف الإرادة.

ولقد وضعت الشريعة الإسلامية برنامجاً لتقوية الإرادة في سبيل الخير في شهر رمضان الكريم، حيث يقمع المؤمن خلال ثلاثين يوماً شهواته ويمتنع عن الطعام والشراب، وكل ما لذّ وطاب أثناء النهار. وبذلك تتقوى إرادة الخير لدى أفراد الأمة.

ثم إنه ليس المطلوب تقوية الإرادة كيفما إتفق، إذ أن الطغاة أحياناً يمتلكون إرادة قوية، وأهل الباطل المتمرسون في الجريمة والمداومون على الإجرام هم أيضاً يمتلكون إرادة قوية. بل المطلوب أن تكون قوة الإرادة في خدمة العقل، والتنافس في الحياة من أجل الخير ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

إنّ على المرء أن يدخل في سباق مع الخيّرين في العمل الصالح، وليس مع الاشرار في ارتكاب الموبقات.

وعلى كل حال فإن على كل إنسان في هذه الحياة أن لا يهمل أعجب ما فيه وهو الإرادة.. كما أن عليه أن يُحسن الاختيار، وأن يحذر من أن تكون إرادته ضد عقله.

في الأزمات إصنع شخصيتك

إذا عصرت تفاحة في المعصرة، فما الذي يخرج منها؟

أليس عصير التفاح؟

وإذا عصرت بصلة بدل ذلك فما الذي يخرج منها؟

أليس عصير البصل؟

وهل يمكن أن تحصل على عصير التفاح، إذا كان الذي تعصره هو البصل؟

وهل يمكن أن تحصل على عصير البصل إذا كان الذي تعصره هو التفاح؟

إنّ ما يخرج من كل فاكهة عند عصرها إنما هو ما

يوجد في داخلها وليس شيء آخر. فإذا كانت الفاكهة فاسدة، فإنّ العصير الذي ستحصل عليه سيكون هو الآخر فاسداً.

وإذا كانت طازجة فإن العصير الذي ستحصل عليه سيكون طازجاً.

وكما في الفاكهة كذلك في الإنسان، إنّ الأزمات التي يمرّ بها هي المعصرة.. وما تفعله هذه الأزمات هو أنها تشدد الخناق عليه حتى يخرج منه ما هو مخزون في داخله، ويظهر الشخص على حقيقته من دون رتوش أو زخرفة.

ولذلك فإن الامتحان الحقيقي للإنسان هو في الأزمات، وفي مواجهة المشاكل، وعند التعرض للنوائب. إنّ المرء قد يتظاهر بأنه رجل صالح، ولربما يتحمل الكثير حتى يظهر بخلاف ما هو عليه.

فإذا تعرّض لضائقة مالية، أو لمصيبة عائلية، أو

خسر في تجارة، أو انهزم في معركة سياسية، أو ما أشبه ذلك، تظهر حقيقته الكاملة من دون قناع أو تلوين..

فالمشاكل تعصر الإنسان حتى يبوح بكوامنه، ويظهر على حقيقته.. ليس عن طريق الكلمات وإنما عن طريق المواقف. ألا ترى كيف أنّ البعض إذا أصيب بمصيبة يجزع بلا حدود.. وربما يكفر بالأقدار ويلعن السماء.

والبعض الآخر ينهزم إذا خسر، أو يجن إذا فقد وظيفة، أو ينتحر إذا خسر في معركة سياسية، أو يشكك في وجود البارئ إذا تعرّض لكارثة..

هؤلاء هم ضعاف النفوس، لأنهم يتنازلون عن مبادئهم وقيمهم مع أول صدمة، ويتراجعون عن إنسانيتهم مع أول ضائقة، ومثل هؤلاء ليس في داخلهم إلّا البصل، وحينما يُعصرون في معصرة الأزمات يخرج منهم عصير البصل، وليس عصير التفاح.

إلّا أن هنالك أشخاصاً آخرين تظهر رجولتهم في

الأزمات، وتتبين أخلاقهم الفاضلة في الشدائد، وتُستثار هممهم حينما تحتوشهم الصعاب، ومثل هؤلاء في دواخلهم التفاح، وحينما يُعصرون في معصرة الأزمات يخرج منهم عصير التفاح، وليس عصير البصل.

إن الرجال يُعرفون في الشدائد والأزمات، وإن الإيمان يتبين عند الفتن.

لقد كنتُ في السابق عندما أسمع أنهم يقولون على سبيل النكتة: «إن شخصاً تسابق مع نفسه فخسر السباق وأصبح الثاني..» كنت أعتبر ذلك مجرد طرفة من طرائف الظرفاء، ولكن بعد التأمل في ذلك بدا لي أن أغلب الناس هم من هذه الشاكلة، فالذي يكون آخر يوميه شرّهما هو من يخسر في معركة النفس، فلا يحرز المرتبة الأُولى، ومن يكون في اليوم حسن الأخلاق دمث الطبع، ولكنه في اليوم التالي يكون سيّئ الأخلاق غليظ القلب، هو ممن تسابق مع نفسه وجنى الخيبة والفشل.

وكذلك من كان في يومه مؤمناً متيقناً، لكن الشك أخذ يقضم يقينه في اليوم الثاني هو ممن تسابق مع نفسه فلم يحرز المرتبة الأُولى، وخسر السباق. إن النفس إذا هُزمت في معركة القيم والمبادئ فلن تبقى لها قائمة..

ألا ترى كيف أن البعض يترك مجتمعه الإيماني السليم، بحثاً عن إشباع نزوة عابرة في وسطٍ فاجرٍ فاسق، غير مبال بما سيؤول إليه مصيره في الدنيا وفي الآخرة؟!

إنّ كل الذين يقفون مع الحق يوماً، ثم ينقلبون عليه يوماً آخر، هم ممن خسر المعركة أمام أهواء النفس، وفي الحقيقة فإن الإنسان في سباق دائم في ميدان الحياة: بين نفسه الأمّارة بالسوء، وبين ضميره المدعوم بالعقل.. وأحياناً ينتصر هذا على ذاك، وأحياناً يحدث العكس. فمنذ الأيام الأُولى لنشأة الطفل ونمو شعوره وإحساسه وفطرته من جهة، وبين رغباته من جهة أخرى.. يجد نفسه في ساحة السباق مع ما يرغب فيه من

جهة، ومع ما يجب عليه أن يفعله من جهة أخرى.

وفي داخل المجتمع أيضاً ينتصر للحق أولئك الذين انتصرت الفطرة في نفوسهم، كما يدافع عن الباطل أولئك الذين انتصرت الأهواء عليهم.

فالحياة حلبة سباق، ومن سبق فيها فاز ومن تأخّر فيها خسر.. والفوز الحقيقي هو في تزكية النفس وتهذيبها. والخسارة الحقيقية هي خسارة الوجدان والضمير والعقل والآخرة جميعاً.

ثم إن للسّباق في ميادين الحياة أوجه متعددة، ولعل من أهمها السباق بين الأفراد، إما لإشباع الأهواء والرغبات والمكاسب المادية، وإما طلباً للعلم والفضيلة والطاعة والخيرات والعمل الصالح، ومن السباق يولد الصّراع بين الناس، ولكن يبقى الصراع الأكبر والأشمل والأخطر للإنسان، هو صراعه مع الشيطان، فَمِن هذا الصراع تتفرع كل الصراعات الأخرى في الحياة العامة.

وغلبة الإنسان في صراعه مع إبليس ستمنحه البصيرة الكافية لمعرفة الطريق الذي ينبغي السير فيه، والعمل من أجل الخير ومواجهة الشر.

فمن يتغلب على شيطان نفسه الأمّارة بالسوء، لن يدخل في التنافس مع الناس من أجل المكاسب المادية، ولن يصارع الآخرين في سبيل الوصول إلى السلطة والهيمنة، ولكنه حتماً سيتنافس مع الصالحين لتحقيق الصالح من الأعمال كطلب العلم، وعمل الخير، ومساعدة الآخرين وما شابه ذلك.

إذن ليس الفضل في أن يكسر الإنسان شوكة الشجعان في الحرب، لأن القوّة قد يمتلكها أقذر الناس، ولكن الفضل كلّه في أن يكسر الإنسان شوكة الشيطان، صاحب القوة الجبارة في داخل ذاته. وهذه القوة هي التي لم يستطع الجبابرة والطغاة بكل ما امتلكوا من قوى وجيوش أن يهزموها، بل انهزموا أمامها. غير أنّ الإنسان المؤمن يستطيع وبسهولة أن يُلحق الهزيمة

بالشيطان الرجيم، بفضل إلحاقه الهزيمة بنفسه الأمّارة بالسوء، واستجابته لضميره ووجدانه.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «ألا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق. ألا وإنّ السَبَقة الجنة والغاية النار. أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته؟ ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه؟»[1].

إن الحياة هي ميدان صراع وسباق، فالتسابق من لوازم الحياة، والصراع من لوازم البقاء.

خذ مباراة رياضية كالمصارعة، أو الجري، أو رفع الأثقال، أو ركوب الخيل، أو السباحة أو ما شابه ذلك. ففي أمثال هذه المباريات هنالك جوائز وميداليات تُمنح لمن أحرز الفوز، ويُحرم منها من خسر. ترى كيف تكون الخسارة؟ وكيف يكون الفوز؟

طبعاً لا يفوز في المباريات إلّا من كان أفضل من

---

(١) غرر الحكم، ج ٢، ص ٣٣٤.

غيره في الأداء، ولا يكفي في ذلك مجرد حسن النية، كما لا يكفي العلم وحده، إنما الأداء الجيد، الذي هو نتيجة الإرادة القوية، هو الذي يؤدي إلى الفوز، فينجح مَن تدرَّب أكثر وواصل التمرين، واستعد للسباق، لأن الفوز لا يأتي مجاناً، إنما هو نتاج العمل الدؤوب والجدّ والاجتهاد والمثابرة.

وليس الأمر كما يقول البعض: بأن الفوز إنما يأتي لأنه مكتوب على الجبين، بل هو بذل الجهد، إذ ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] كما يقول القرآن الكريم.

فكما أنه في المباريات الرياضية لابدّ من توفر أمرين:

الأول: الأداء الجيد على أرض الواقع، مثل الركض والمصارعة ورفع الأثقال وغيرها..

الثاني: الجائزة التي تُعطى للفائزين.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وكذلك الأمر في باقي ميادين الحياة، فهي ساحة صراع وتنافس، ولكن السباق ليس في الألعاب وما يرتبط بأمور الدنيا، بل هو سباق للباقيات الصالحات كما يقول ربّنا: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

إن موضوع المسابقة هو تهذيب النفس وإصلاح النية.. وميدان السباق هو العمل وأداء الواجبات..

يقول الإمام علي عليه السلام: «ميدانكم الأول أنفسكم، فإن قدرتم عليها فأنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم عنها فأنتم عن غيرها أعجز».

وفي النهاية تقدم الجوائز للفائزين، وهي عبارة عن الفوز بجنة الله عزّ وجلّ ورضوانه. يقول الإمام الهادي عليه السلام: «الدنيا سوق، ربح فيه قوم، وخسر آخرون»[2].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٦٦.

فالمطلوب بعد تهذيب النفس وتزكيتها، هو المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى الأعمال الصالحات.

يقول ربّنا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[1].

ويقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾[2].

ويقول تعالى عن المؤمنين: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[4].

وكما في المباريات الرياضية أنّ العبرة لا تكون

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ١٠ ـ ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٤.
(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

بالفوز في الشوط الأول للمباراة، وإنما الانتهاء بالفوز في الشوط الأخير..

كذلك في الحياة. فهنالك جولات كثيرة، وحلبات مختلفة للسباق، وعلى المرء أن يكون حذراً جداً فلا يصاب بالغرور إذا ربح في البداية، حتى لا يخسر في النهاية، ولا يصاب باليأس إذا خسر في الجولات الأُولى. حيث إن بإمكانه أن يعدّ العدة مرة أخرى ويكون الفائز في نهاية المطاف.

وعلى المرء أن يتوكل على ربّه عزّ وجلّ ويعمل للفوز في ميدانه الأول على أهواء نفسه، حتى يكون أقدر على الفوز في ميادين الحياة الأخرى.

ضع ميزاناً لأعمالك

هل سألت نفسك: ما هو الميزان الذي يجب أن تزن به مختلف أنشطتك في الحياة؛ هل هو مقدار ما تستهلك، أم مقدار ما تزيد في عملك وإنتاجك؟

لنأخذ الطعام الذي تأكله مثالاً، فإننا نجد أنّ الذي ينفع الإنسان منه ويعطيه القوة والطاقة ليس هو ما يأكل الشخص، بل هو ما يهضم منه.

وهذا يعني أنّ ما يزداد فينا هو الميزان وليس ما نستهلك. وكما في الطعام كذلك في الأمور الأخرى، فما يجعل المرء غنياً ليس ما يجنيه، بل ما يوفّره. وما يجعله مثقفاً ليس هو ما يقرؤه، بل ما يتذكره..

وبناء على هذه القاعدة فإنّ ما يجعل الشخص مؤمناً ليس هو ما يدَّعيه، بل ما يؤديه من عمل، يقول ربنا تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

إنّ معراجك هو في تقواك، وإنّ علمك في معرفتك، كما أنّ قوتك في استيعاب عضلاتك القوة مما تأكل.

وهكذا فإن الميزان ليس هو المقدار الذي تأخذه من الأشياء، بل هو ما تستوعبه ثم تفرزه على شكل نشاط وإنتاج.

ثم إنّ للعمل جانبان: روح العمل، وآليته.

فروح العمل تعتمد على أمور ثلاثة:

الأول: الرؤية الصائبة للهدف.

الثاني: معرفة الطريق الصحيح.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٠.

الثالث: إتخاذ القرار المناسب.

أما (آلية العمل) فهي تقوم على أمور ثلاثة أيضاً:

الأول: وجود إطار مناسب.

الثاني: وجود قنوات سليمة للعمل.

الثالث: التحرك بالحجم المطلوب.

فإذا كانت الرابطة بين روح العمل وآليته سليمة، فإن النجاح بلا شك سيكون من نصيب العامل، وإلّا فقد تتعثر الأمور وتتعرقل القضايا ويضيع الجهد، والمشكلة مع الفاشلين قد تكون في فقدان الرؤية الصائبة، وقد تكون في فقدان الإرادة مع توفر الرؤية الصائبة. وقد تكون المشكلة في إطار العمل، أو في قنواته، أو تكون المشكلة في الأداء.

فَمَن رأى خللاً في عمله، فلابدّ أن يراجع نفسه ويحاسبها ويستقصي الأمور، ويحاول أن يكتشف مكان

الخلل، إذ أننا قد نعالج في الآلية بينما نحتاج إلى علاج الخطأ في الروح.

فالذين لا يملكون الإرادة للعمل لن ينفعهم وجود قنوات سليمة وأُطر مناسبة. لأن مشكلتهم كامنة في روح العمل. مثل فقدان الإرادة أو فقدان الرؤية، أو فقدان هدف محدد.. وربما تكون المشكلة في الطريق الخطأ الذي يسلكه الفرد، بالرغم من وجود الروح، وتحديد الهدف، فهو كمن يريد الوصول إلى مكة ولكنه يسلك طريق بغداد.

ومع وجود أي خلل، فإنّ علينا أن ندرس المشكلة لنتعرف على مكمن الخلل، فمن يفتقد الإرادة، ولا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، لن ينفع معه توفر الوسائل اللازمة للنجاح، وإن كان معظم الذين يعانون من الخلل في الروح يعلقون أسباب إخفاقهم على مشجب فقدان الوسائل، فكم من وسائل تراكمت في

الإدارات والمكاتب، لكنها بمرور الزمن أصبحت عقبة أمام الإنجازات، وليس وسيلة لتحقيقها.

أمّا مَن يمتلك الإرادة، ولا ينقصه تحديد الهدف الواضح في الحياة، ولكنه يعاني من فقدان الوسائل، فإن توفير بعض الوسائل له قد تفيد في تصحيح وضعه تماماً.

وعلى كل حال، فإنّ من لديه التصميم على النجاح فهو مهما خسر من الفرص فهو يتهيأ لاقتناص فرص أخرى.

وما أكثر الفرص المتاحة التي تذهب مع الريح، لا لأن الناس غير راغبين في اقتناصها، بل لأنهم لم يخططوا للاستفادة منها. فالتخطيط المسبق جزء من الآلية المطلوبة للنجاح.

إنّ الأقدار تساعد أولئك الذين يمتلكون روح العمل، ويسعون بجدّ لامتلاك وسائل النجاح.

فلكي تنجح أنت بحاجة إلى إتباع الخطوات التالية:

أولاً: حَدِّد الهدف الذي تريد الوصول إليه.

ثانياً: إرسم في ذهنك خطة لتحقيق ذلك الهدف.

ثالثاً: ضع تفاصيل تنفيذ الخطة على الورق، ولتكن ضمن إطار (سأعمل هذا العمل بهذه الصورة) بدل أن يكون الإطار (سوف أعمله) فقط.

رابعاً: كن متحمساً لانجاز خطتك.

خامساً: إستشر الخبراء الذين تثق بهم.

سادساً: قم بقياس مدى تقدمك على ضوء الخطة التي وضعتها، وانظر إلى الوراء بين فترة وأخرى، لترى كم قطعت من المسافة لتنفيذ الخطة.

سابعاً: لا تحاول تنفيذ الخطة دفعة واحدة، بل اجعلها خطوات متتابعة.

ثامناً: إعط كلَّ جزء من الخطة حقه من النشاط والعمل، بشكل متساو مع بقية الأجزاء. والمطلوب قبل كل ذلك ومعه وبعده طلب التوفيق من الباري عزّ وجلّ إذ بدون ذلك لا مجال للنجاح.

كما أن عدم التأجيل أيضاً ضروري. وبمثل هذه الخطة يكون لديك (ميزان) تستطيع أن توزن به الأشياء، وتقدر مختلف الأمور.

علّم نفسك لغة جديدة

الكثير من الناس يبرّرون عدم تعلّمهم للفنون، واللغات، والعلوم، بأنهم لم يجدوا مَن يعلّمهم ذلك في أيام طفولتهم.

ومع أن للمعلّم دوراً مهماً في توضيح ما يحتاج إليه المتعلّم، إلّا أن الجهد الرئيسي بالطبع يجب أن يبذله الطالب نفسه ودور المعلم ثانوي في التعليم. ولذلك يمكن القول أنّ في مقدور كل الناس أن يتعلّموا الفنون الإنسانية بدون معلّم، ولكن بشرط بذل الجهد المطلوب وممارسة التمارين اللازمة لذلك.

فدور المعلّم ليس أكثر مِن دور مَن يشير إليك بإصبعه إلى الطريق الذي نبحث عنه، فهو دليل إلى المعرفة، غير

أنه ليس بديلاً عنك في تلقيها، فأنت الذي يجب أن تسلك الطريق.

ثم إن التقدم الحضاري أبدع وسائل جديدة للإستفادة من العلوم الحديثة، دون حاجة كبيرة إلى المعلم، فوجود كُتيّبات صغيرة، وأشرطة الكاسيت، وأفلام الفيديو، وأجهزة الكمبيوتر، وبرامجها المتنوعة.. كلها يمكن أن تؤدي دور المعلم.

وهنا أذكر أنّي حضرت مؤتمراً للجمعيات الإسلامية في مدينة «ساوباولو» البرازيلية، فجلس إلى جانبي شخص لم أكن أعرفه، وظننت في الوهلة الأُولى أنّه عربي؛ فالتفتُّ إليه وكلّمته بالعربية، ولكنه أجابني باللغة البرتغالية التي لا أُتقن منها شيئاً.

فعرفت بأنه ليس عربياً، فتحدثت إليه بالإنجليزية فتعلثم فيها، حيث لم يكن يجيدها تماماً، وعرّفني بنفسه فتبين لي أنه نائب رئيس البلدية في مدينته.

فقلت له: هل حاولت أن تتعلم العربية؟

أجاب: كلّا.

قلت: كم من اللغات تعرف؟

فأجاب: البرتغالية، وشيئاً بسيطاً من الإنجليزية.

فقلت له: أظن أن موقعك الاجتماعي يتطلب منك أن تعرف أكثر من هذا، أليس كذلك؟

فقال: بالطبع؛ غير إنني لم أجد معلّماً.

فقلت: لا أظن إن ذلك بحاجة إلى معلّم.

فسأل مستغرباً: وكيف يمكن ذلك؟!

فقلت له: كيف ترى لغتي الإنجليزية؟

قال: أحسن مني بنسبة ستين بالمائة.

قلت: تُرى، لو قلت لك إنه لم يعلّمني أحد هذه اللغة، وقد بدأت تعلّمها في سنين متأخرة من حياتي بعد أن تجاوزت الأربعين عاماً، فهل تصدقني في ذلك؟

فقال مندهشاً: أيعقل ذلك؟ وكيف تعلّمتَ لغة من دون معلّم؟!

قلت، لقد كان معلّمي هو «الشريط» وكتاب اللغة.. وهل المعلّم يقوم بأكثر مما يقوم به الشريط والكتاب؟

في الحقيقة إن المقصود من جملة (لم أجد معلّماً) إنما هو مجرد تبرير لإيجاد الأعذار لعجزنا في تحقيق طموحاتنا وأمانينا.. لأن دور المعلم هو دور جانبي، والدور الأساسي إنّما هو للمتعلّم.

ولهذا فإنني أميل إلى تصديق عناوين الكتب التي صدرت عندنا في السبعينات مثل كتاب (كيف تتعلّم اللغة الإنجليزية في خمسة أيام بدون معلّم).

والمشكلة فقط هي في المدة المذكورة، إذ لا يمكن أن يتعلّم أحدٌ أيّة لغة خلال «خمسة أيام» إلّا أن القسم الأخير من العنوان هو صحيح، وهو الذي يؤكّد إمكانية تعلّم اللغات من دون حاجة للمعلم.

فإصرارك على التعلّم هو خير معلّم!

خاصّة وأنّ اللغات ليست مجرد وسائل إرتباط فحسب، بل هي ثقافات متعددة، وعوالم متنوعة، وعلاقات متشعبة.. فمن تعلّم لغة ثانية فكأنه دخل مدناً أخرى، وتعلّم ثقافات أخرى، وتعرّف إلى أُناسٍ لم يكن يعرفهم من قبل.

اللغة الجديدة تعطي الإنسان شخصية جديدة إضافة إلى شخصيته القديمة، وحسب تعبير الإمام علي عليه السلام: «ما الإنسان لولا اللسان إلّا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة»[١].

* * *

والسؤال المهم هنا هو: كيف نتعلّم لغة جديدة؟

قبل الإجابة على ذلك لابدّ من القول إننا لم نبذل جهوداً كبيرة لتعلّم لغتنا الأصلية، لأننا كنّا صغاراً ولا نتذكر إن كنّا قد واجهنا صعوبة في ذلك أم لا، ولم يكن

---

(١) غرر الحكم، حديث رقم ٤٠٢٩.

تعلّمنا للغة آبائنا نتيجة قرار صدر منّا.. بينما إذا عزمنا على تعلّم لغة جديدة في الكبر فإن ذلك يحتاج إلى قرار حاسم.. ولو أنّ أحداً إتخذ مثل هذه القرار فيكون قد تخطى ٥٠٪ من الطريق للوصول إلى هدفه.

فالذين يرغبون في تعلّم لغة جديدة كثيرون، إلّا أنّ الذين يقررون بالفعل تعلّمها هم قلّة منهم، أما الأكثرية فلا يتخطون عتبة الرغبة.. والرغبة وحدها لا تكفي لتعلّم أيّ شيء، بل لابدّ من إتخاذ القرار المقارن للإصرار على تحقيقه ثم وضع برنامج عملي يومي، ومن المؤكد أن يحقق مثل هذا البرنامج نتائج باهرة.

وأمّا مقدار تعلّم الإنسان فهو منوط بمدى سعيه واستمراره على برنامج متواصل، فلو انقطع عن التعلّم في وسط الطريق، فسيكون مستواه بنفس المستوى الذي انقطع فيه عن الدراسة.

وهكذا فإنّ الخطوة الأُولى لتعلّم أية لغة هي في أن

تحسم قرارك، أما الخطوة الثانية فهي إتباع برنامج عملي يشمل ما يلي:

١ ـ أن تستمع إلى تلك اللغة، وهذا لا يكلّفك شيئاً إلّا بعض التركيز.

٢ ـ أن تحفظ، ولو خمس كلمات في اليوم.

٣ ـ أن تستخدم ما تعلّمته من الكلمات من دون خجل من ارتكاب الأخطاء.

وعليك أن تتيقن أنه لا أحد ينتظر منك إتقان اللغة الجديدة مرة واحدة، ولا أن لا ترتكب خطأً عند تحدّثك بها لأنها ليست لغتك الأصلية التي برعت فيها، فمن الطبيعي أن يتلكأ لسانك عند تحدّثك بها.. فالحياء هنا مضيعة للجهد، وتثبيط للعزم، وما عليك إلّا أن تستمع جيداً لجرس الكلام، وتقرأ بإمعان، وتتحدث بإكثار حتى تتعلّم لغة جديدة، ولا يجوز القلق إذا لم تحفظ الكثير من الكلمات خلال فترة قصيرة لأنّ إصرارك على التعلم هو الذي سيفتح لك الطريق.

وهناك أمران قد يثبّطان عزيمتك للتعلّم وهما :

أولاً : وجود الماسح في الذاكرة الإنسانية، والذي قد يؤدي إلى نسيان الكثير من الكلمات التي تمّ حفظها، وبالطبع سيكون لذلك عواقب سيئة على معنويات المتعلّم، إلّا أنك لابدّ أن تعرف بأن الذاكرة عادة تقوم بمحو الكلمات غير الضرورية وغير المستعملة.

ثانياً : إرتكاب الخطأ في استعمال اللغة. وهذا يؤدي إلى أحد أمرين : أما التراجع عن التعلّم بشكل نهائي، وإما ترك التمرين العملي، والاكتفاء بالتعلّم بلا تمرين. وهنا لابدّ من تذكير الذين يرغبون في تعلّم أية لغة جديدة أنّ الناس يخطئون حتى في استخدام لغتهم الأصلية، فكيف باللغات الجديدة، وأن التراجع عن استخدام اللغة هو سبب نسيانها، وليس استخدامها حتى مع الأخطاء.

إنّ التعلّم إذا كان وفق برنامج مدروس فإن الذاكرة

ستعمل بشكل جيد وسوف ينخفض نسيان الكلمات، ثم إنه ينبغي حفظ الكلمة بشكل سليم، لأن حفظها بشكل مغلوط سيؤدي إلى تضعيف الذاكرة، حيث إنك ستحاول عدة مرات أن تحفظ كلمة واحدة بسبب الخطأ الأول في حفظه.

ومن الأمور المهمة في تعلّم اللغة مع معلّم أن يكون ذلك المعلّم متمكناً من تلك اللغة، ومن الأفضل أن تكون اللغة التي تودّ تعلّمها هي لغته الأصلية، لأن ذلك سيساعدك على تعلّم الكلمات بلهجتها ولابدّ أن تحاول إختيار برنامجك للتعلّم بشكل يتناسب مع المادة المراد تعلّمها ضمن الوقت المحدد، فالمرحلة الإبتدائية لتعلّم اللغة قد تتطلب منك فترة تختلف بشكل أو بآخر عن المرحلة المتوسطة والنهائية، والكتاب الذي على أساسه سيتم التعلّم هو الذي سيحدد فترة كل مرحلة دراسية.. وبالطبع فإن مداومتك على البرنامج هو الكفيل بتحقيق أمنيّتك بالتعلّم.

من هنا فإن برنامج دروس تعليم اللغة الأجنبية يدخل ضمن إطارين:

الأول: الجانب العقلي والعلمي، الذي يخضع للبحث والاختبار ووضع البرنامج الملائم للتعلّم.

الثاني: جانب اللّاوعي: وهو الذي يحتفظ بالمعلومات، ويستعملها صاحبها من دون حاجة إلى تفكير ووعي، فعندما نتكلّم بلغتنا الأصلية فإننا لا نحتاج إلى تفكير مسبق لاختيار الكلمات المناسبة للمعنى الذي في أذهاننا، لأنّ العقل الباطن يستخرج الكلمات المناسبة وبأسرع وقت، لكننا عندما نريد التحدث باللغة الجديدة التي نتعلّمها، فعلينا أن نفكر مسبقاً لاختيار الكلمة المناسبة للمعنى الذي نريد بيانه، وهذا يسبب عدم إنتقال هذه الكلمات إلى اللّاوعي.

ولأجل طبع الكلمات الأجنبية في الذاكرة ينبغي على المتعلّم أن يكرّر بشكل دائم تلك الكلمات التي حفظها

حتى تنتقل إلى الوعي الباطن، وإذا تَمَّ حفظها هناك.. فإن العقل الباطن سيتكفل بالإستفادة منها في وقت الحاجة دون مواجهة أية مشكلة، وبذلك ستصبح اللغة الجديدة بسيطة عليك.

وعلى كل حال فإني أعتقد أنّ صرف بعض الوقت يومياً كاف لتعلّم لغة كاملة، وكما يقول أحد الكتّاب فإنّ من يصرف كل يوم ساعة في هذا المجال يصرف خمسة عشر يوماً ـ ليلاً ونهاراً ـ في السنة، أي خمسة أشهر في عشر سنين.. وهي مدة كافية لتعلّم لغة جديدة، أو معرفة علم جديد. فكيف بمن يُنفقون كل يوم ساعتين أو ثلاثاً أو أكثر؟

لا تُظهر كلَّ علمك
فتظلم العلم

لا يضيق صدرك بما تعلم، ولا تبادرنّ إلى قول ما لم يُطلب منك قولُه، فليس كلّ ما يُعرف يُقال، وليس كل ما يُقال ينفع.

فلا تحاول أن تبدو كأنّك الأعلم بين الحاضرين، بل ضع علمك في موضع ساعة اليد التي تخفيها عادة إلى حين تُسأل عن الوقت.. أمّا لو أظهرتَ علمك في غير موضعه فإنّ ذلك يُعدّ من العبث، تماماً كما يُعتبر من العبث لو امتنعت عن إظهاره في وقته، فالعلم كالنصيحة ينبغي إسداؤها لمن يستحقها، أما لو أسديتها لغير مستحقها فهو إهدار لها، وقد قال الإمام علي عليه السلام في

ذلك: «لا خير في الصمت عن الحكمة، كما أنّه لا خير في القول بالباطل»[1].

ينبغي أن نبذل العلم مشفوعاً بالحكمة، وأن نبذله بمقدار ما يستوعبه المستمعون، ولو إننا استنزفنا العلم بأكثر مما يستوعبه الآخرون نكون قد ضيّعنا العلم وأهدرنا طاقتنا في أمر لا طائل منه، علاوة على أنّ ذلك سيصيب أولئك الأشخاص باليأس وخيبة الأمل.

فإذا استفسر منك طفل عن أمرٍ ما، فلابدّ أن تجيبه بمقدار فهمه واستيعابه، ولو أجبته بما يتناسب مع أستاذ جامعي تكون قد أضعت العلم والمتعلّم معاً، فالعلم يضيع كما يضيع الطفل.

تُرى، لو أنّ المعارف التي تُدرّس في الجامعة نقلناها إلى المدارس الإبتدائية، أليس نكون بفعلنا هذا قد مزّقنا وعاء العلم في أنفس الأطفال، وضيّعنا العلم أيضاً!؟

---

(١) غرر الحكم، ج ٦، ص ٤١٤.

وفي أحيان كثيرة يقع المرء في مصيدة الجدل، ولا يعرف كيف يتخلص من النقاش الذي لا ثمرة فيه، وعندما يصل النقاش إلى هذا المستوى ينبغي على المرء أن يقطع الحديث لكي لا يستنزف جهده وعقله في غير محلّهما، فهناك من يستمر في الجدل لكي يثبت للآخرين خطأ أفكارهم فيأتي بالدلائل العلمية والقاطعة، إلّا أنّ الطرف المقابل لا يريد أن يتقبل الحقيقة كما هي، ولا يريد الاعتراف بالفشل وتأخذه العزة بالإثم فيحاول أن يُشكك بصحة الحقائق بأيّ شكل من الأشكال، فالنقاش هنا سيتحول إلى جدل غير نافع، ومن العبث أن يبذل المرء جهداً عقلياً على مثل هذا الجدل.

وهكذا نجد أنه كما يوجد هناك نقاش علمي نافع، فهناك أيضاً نقاش جدلي فارغ ليس من ورائه جدوى..

فالمعرفة نوعان: نظري وعملي، والنظري هو الذي يتبحر فيه بعض طلبة العلوم، بينما العملي هو ما يحتاج

إليه عامة الناس لأنه يرتبط بحياتهم اليومية، ومعائشهم، وتدبير أمورهم العامّة.

فالمعرفة المجرّدة غير مجدية إذا لم تكن ذات صلة بمصالح الناس ولم يكن هدفها تطوير الحياة الإنسانية، فمثل هذه المعارف ستكون كالعنبر الذي تُخزّن فيه السلع التالفة التي لا يمكن الاستفادة منها.. بينما معرفة ما يرتبط بحياتنا اليومية سيفتح لنا طرق الحياة وأبوابها الموصدة.

وإذا كان البعض يهتم فقط بالمعرفة النظرية، فإنه غالباً ما يفشل في حياته العملية، لأنه يشبه ذلك الذي ألّف كتاباً بعنوان (كيف تصبح مليونيراً) ولكنه مات من الفقر والعوز، أو ذلك الذي ألّف كتاباً بعنوان (كيف تعيش بصحة جيدة مائة عام) وقد ظهر فيما بعد إنه مات بسبب مرض عضال وهو في ريعان الشباب.

من هنا فإن حاجتنا إلى الأفكار الحياتية وما يرتبط

بأمورنا اليومية أكثر من حاجتنا إلى الأفكار المجردة والنظريات العامة.

يقول أحد الكتّاب: هنالك ثلاثة أنواع من المعرفة: المعرفة بالمعنى النظري، ومعرفة ماذا تفعل، ومعرفة كيف تعيش.. ولكني لاحظت أن من يعرف ماذا يفعل، وكيف يعيش، لا يحتاج كثيراً إلى النوع الأول من المعرفة.

فمن أجل أن تسعد في الحياة، إبدأ من معرفة ما تفعله كل يوم، واحص كل لحظة تقضيها في يومك وسجّلها في دفتر خاص، وادرس بدقة كل الأعمال التي قمت بها في يومك، إنك تنام كل يوم، وتستيقظ كل يوم، وتأكل كل يوم، وتمشي كل يوم، وتتعلّم، وتعمل كل يوم. هذه أمور تمارسها كل يوم وتحتاج إليها، فلابدّ أن تعرف كيف تنام؟ وكيف تستيقظ؟ وكيف تتعلّم؟ وكيف تعمل؟.. وهكذا فيما يرتبط ببقية أمورك، فإذا تعلّمت ذلك فإنك تعيش حياة هنيئة سائغة.

أمّا إذا لم تعرف كيف تنام؟ وكيف تستيقظ؟ وكيف تأكل؟.. لكنك ملأت دماغك بنظريات لا طائل لها، ولا تنفعك في حياتك اليومية، فإنك تكون ممن ضيّعت على نفسك الحياة كلّها. ويكون أمرك مثل ما قيل عن شخص إنه حفظ القرآن. فقال عنه أحد العلماء: زادت نسخة في البلد.. لأنه حفظ الكتاب في دماغه، لكنه لم يحوّله إلى منهج عمل يومي لنفسه.

تصحيح المعتقدات
ضمانة لسلامة العادات

المتأمّل في عادات الناس وتقاليدهم يلاحظ أن الأفكار تسبق العقائد، والعقائد تسبق الأفعال، والأفعال تسبق العادات والتقاليد.

فالمعتقدات هي حجر الأساس لتصرفاتنا جميعاً، إلّا أن تأثيراتها ليست مباشرة، بل هي بعيدة المدى، فمن المعتقدات تُولد الأفعال، ومن الأفعال تُولد العادات والتقاليد، ومن العادات والتقاليد تتكوّن شخصيتنا الاجتماعية.

من هنا فإن من الضروري تنقيح الرؤى لضمان سلامة

المعتقدات، وبعدها يتم تصحيح الأفعال حتى نتعوّد على الخير ونترك الشر.

فمن أراد أن يغيّر عادة سيئة في ذاته فلينبش في جذورها، ويبدأ من الفكرة التي أدت به إلى العقيدة، والتي دفعته بدورها للقيام بالفعل الخاطئ.

إنّ العادات والتقاليد تضرب جذورها في عمق التاريخ، وسبب إستمرارها وديمومتها ليس كونها صحيحة ومنزّهة عن الخطأ، فالكثير من العادات السلبية السيئة إستمرت مع الناس لقرون طويلة، وسبب ديمومتها هو إجماع الناس على الالتزام بها، والإحسان لمؤديها، ومعاقبة مخالفيها.

فكثيراً مّا تصل عقوبات الإحجام عن الالتزام بالعادات والتقاليد إلى حدود بعيدة قد تصل إلى حد القتل، إضافة إلى ما يجلب إلى من يخالف تلك العادات والتقاليد من العار، وسوء السمعة، وسط العشيرة التي ينتمي إليها.

إنّ قوة العادات والتقاليد نابعة من الأفكار التي تحوم حولها، وهي عادة أفكار مؤيدة ومساندة لها، وهي كقالب فولاذي يحمي ما في داخله من تقاليد، وإن كانت هذه التقاليد خاطئة فإن الذي سيحميها من الزوال هي الأفكار التي تحوم في أذهان الناس حولها.

وأنت إذا كنت تريد أن تكون لك عادات حسنة، وتتجنب العادات السيئة فليس أمامك إلّا تصحيح المعتقدات والأفكار أولاً، ثم الالتزام بأفعال صحيحة، وتكرارها حتى تصبح عادة.

وخير البرّ ما تعوّدت عليه، كما يقول الإمام علي عليه السلام.

أين موقعك من الزمن؟

معروف أن الزمان هو البعد الرابع بعد الطول، والعرض، والعمق. ولذلك فإن للسرعة في الزمن قيمة ذاتية نابعة من إندماجها بالإنتاج، فللسرعة في الصناعة قيمة تعادل الذهب، فصنع السيارة مثلاً بالسرعة المطلوبة يعادل أضعاف قيمتها فيما لو انخفضت هذه السرعة، إذ من الممكن أن يكون باستطاعة أيّ بلد صنع سيارة واحدة ولكن في عام كامل، بينما المصانع الحديثة تنتج مئات السيارات في يوم واحد، وهذا ما يجعلها شركات ناجحة.

من هنا فإن أهميّة السرعة تأتي بنفس أهميّة الجودة،

فالسرعة زائداً الجودة تعني إنتاجاً كثيراً بجودة عالية، وهذا هو سرّ نجاح الصناعات الحديثة.

ثم كلّما كانت المجتمعات أكثر تخلفاً أصبح الزمان لديها أقل أهمية، بينما المجتمعات الحديثة تسعى إلى مسابقة الزمن بأقصى سرعة.

ألا تجد كيف إننا عندما نريد تبيان مقدار التقدم الذي أحرزه الإنسان في العصر الحديث نقول: بأنّ الناس كانوا يسافرون في الماضي على ظهور البغال والحمير، وهم اليوم يسافرون على متن الطائرات، وحينما نقيس السرعة التي كان الإنسان الأول يقطعها مع السرعة التي يقطعها الآن نرى أنّ الأول متأخر في الزمان والمكان بنفس مقدار السرعة الزمانية التي قطعها الثاني.

وتسعى الدول المتقدمة إلى صنع وسائل نقل تتمتع بسرعة أكثر مما عليها الآن، وذلك من خلال صنع طائرات بمقدورها أن تقطع المسافة بين (طوكيو)

و(نيويورك) في ثلاث ساعات ونصف، ونرى في المقابل دولاً أخرى يقضي مواطنوها عدة أيام لتنتقل من مدينة إلى أخرى على البغال والحمير، وهذا هو الفارق بالضبط بين تقدم كل من (طوكيو) و (نيويورك) وتأخر تلك الدول.

وفي هذا المضمار يواجهنا سؤال يقول: ما هو مقياس الزمن؟ وكيف نعرف إذا كانت حياتنا تسير ببطء، أم بسرعة؟ وبعبارة أخرى: أين موقعنا من الزمن؟

والجواب: الميزان هنا هو مقدار ما نستفيد من الزمن، وما ننجز فيه، فإذا انخفض مستوى الاستفادة؛ أبطأ الزمن، وميزان الساعة مقياس جميل للزمن الموجود في داخل كل إنسان، لأن الزمن كان مع الإنسان منذ الخليقة حين لم تكن الساعة، ولكن الإنسان الأول وضع لنفسه مقاييس لمعرفة الزمن بطرق مختلفة.

فالساعة بحد ذاتها يمكن أن تكون ميزاناً جيداً لقياس

سرعة الزمن وبطئه، فهناك ساعات فيها عقارب تشير إلى زمن الساعة دون الدقائق أو الثواني، والزمن في هذه الساعات يعتبر بطيئاً لأنه لا يحدد لنا الدقائق، فإذا مرّت نصف ساعة سنرى العقارب وهي تقطع نصف المسافة بين الرقمين ببطء شديد.

وحينما نقيس الزمان بساعة لها عقارب تشير إلى الدقائق والثواني، أو تلك الساعة الأليكترونية التي يستخدمونها في مجال الفضاء، والتي تقسّم الثانية الواحدة إلى أكثر من ألف جزء، حيث يكون للزمن «الجزء من الألف من الثانية» فإن قيمته الحياتية بالنسبة إليهم تكون كبيرة جداً لأنّ الجزء الضئيل من الزمن هو الذي يحدد قياس سرعة الزمن عند أمّة وبطئه عند أخرى.

وهناك ميزان آخر وهو مقدار الإنتاج ونوعيّته وجودته، لذلك فإن البشرية تسعى دوماً لصنع أدق الأجهزة لقياس هذا الزمن والإنتاج فيه، وكلما تطور الإنتاج ازدادت الحاجة إلى مزيد من الوقت، بينما نرى

في البلدان المختلفة أنّ هدر الوقت موازٍ لهدر الإنتاج.

وقد يعترض البعض على مفهوم السرعة وضرورتها للحياة..

والحال أنها جزء من الخليقة، فالله سبحانه وتعالى خلق أجهزة البدن بحيث تؤدي عملها في وقت محدد؛ وتستجيب لكل الحوافز بأقصى سرعة ممكنة، فدماغ الإنسان لا تضاهي سرعته الفائقة أي جهاز صنعه البشر لاستقبال المعلومات وتحليلها واتخاذ القرار بشأنها، فالدماغ يؤدي مليارات العمليات الحسابية في الثانية الواحدة.

ومعنى هذا أن السرعة الحاكمة في داخل الإنسان هي أكبر بكثير مما يُستفاد منها، والإنسان هو الذي يتباطأ في استخدام هذه السرعة أو يُلغيها تماماً.

أترى أنّ الذين يتقنون سرعة القراءة هل هم يصنعون معجزة في ذلك؟

بالطبع.. كلّا، لأن الإنسان قادر على إتقان السرعة في القراءة، وإن لم يفعل ذلك فإنه يكون قد ضيّع على نفسه الكثير من الوقت، فإذا كان بمقدورك قراءة مائة صفحة في الدقيقة الواحدة، ولكنك اكتفيت بصفحة واحدة في نفس المدّة فأنت الخسران.

لقد خلق الله فيك عقلاً فطناً، وعينين تلتقطان الصور بسرعة، وتنقلان المعلومات إلى دماغك بسرعة فائقة، فلماذا لا توظّف هذه السرعة في زيادة معلوماتك؟

ثم إنّ الوقت هو العمر، والعمر هو الحياة، ومَن أراد أن يعيش الحياة فلابدّ أن يجاريها في سرعتها وأن نُسرع ولا نُبطئ في الحركة، وأن نستغل كل جزء من الألف من الثانية في حياتنا.

* * *

وهنا ملاحظة هامة وهي أنّه مع التأكيد على أهمية السرعة، إلا أنه ليس كل شيء يستحق السرعة، كما ليس

كل شيء يستحق التمهل، فالوقت الذي نصرفه على أي شيء يجب أن يتناسب مع قيمته، فمثلاً لابدّ وأن نسرع في تهيئة الطعام ولكن نتمهل في أكله، كما لابدّ أن نسرع في تهيئة أمور السفر لكي نطمئن في الرحلة، ولابدّ أن نسرع في الدراسة ولكن نتمهل في الامتحان، ولابدّ أن نسرع في الخير حتى نستمتع بنتائجه.

ينبغي أن يكون التأنّي في موقعه مثلما ينبغي أن تكون السرعة في موقعها أيضاً، أما إذا خالفنا هذه المعادلة وسرنا بالاتجاه المعاكس فنكون ممن خسر مرّتين؛ مرة حينما نعاني من متاعب السرعة في غير موقعها، ومرة حينما لا نتمهل في قطف ثمار نتائج أعمالنا.

إنّ ظروف الحياة ليست على مستوى واحد، ففيها منحنيات كما هي في الأرض، وهضاب وجبال وللمسير في تلك الطرق فنحن بحاجة إلى نوع مشابه للمسير، فلا يمكن مثلاً أن يركض الإنسان على الجبال، فبعض الأمور يحتاج إلى السرعة وبعضها الآخر إلى التأني،

فلابدّ أن نعرف متى يجب أن نسرع الخطى ومتى يجب أن نتريث..

فلربما نخسر حياتنا لخطوة مستعجلة في غير محلها، أو نخسرها لأننا تثاقلنا في موقع العجلة، فلو أصيب إنسان بحادث وكان بحاجة إلى العلاج السريع فتأخر أصحابه في إيصاله إلى المستشفى، فإنهم سيساهمون في القضاء عليه.

والعكس أيضاً صحيح، فلو أن إنساناً تعرّض إلى صدمة قلبية فإنه سيكون بحاجة إلى الراحة المطلقة، أما إذا أجبرته على الركض أو الحركات العنيفة فلربما تقضي على حياته.

إنّ الخط البياني لمختلف المسائل هو خط متعرج، وليس خطاً أفقياً مستقيماً، أو عمودياً صاعداً، وعليك أن تعرف متى ينبغي أن تستخدم السرعة ومتى ينبغي أن تتمهل. فلا تكن مسرعاً دائماً ولا مبطئاً دائماً، فليست

السرعة مطلوبة في كل شيء مطلقاً، كما أن التمهل ليس هو الآخر مطلوباً في كل شيء.

إنّ تناسب حركتك مع حركة الحياة يجب أن تتناسب مع استخدام السرعة أو البطئ بحسب الحاجة إليهما، وتلك هي الحكمة التي لابدّ وأن تتمتع بها.

ألا ترى كيف أنّ الفاشل يؤجِّل عمل اليوم إلى غد، أو بعد غد، أو إلى أشعار آخر؟ أو يستعجل في غير موقعه؟

فهو في موقع السرعة يتباطأ، لأنه لا يريد أن يواجه أمراً يتطلب الجهد والتفكير، إمّا لأنه غير واثق من نفسه، أو لأنه خائف، أو لأنه كسول.. فيحتمي وراء شعار: (في التأني السلامة).

وقد يكون هذا أحد مظاهر التخلّف في عصرنا الذي إمتاز بالسرعة، واتصف بالحروب الخاطفة.. سواء كانت حرب علم، أو حرب مواقع، أو حرب صناعة،

فهي لا تعطي الإنسان الفرصة ليفكر فيما يُعده من مستلزماتها.

لقد أصبحت جامعات كثيرة في العالم تعتبر سرعة الإجابة على الأسئلة في الامتحانات عاملاً يضاهي الإجادة والصحة فيها.. أي أنه في حالة تساوي طالبَين في إعطاء الجواب الصحيح، فإن هذه الجامعات ترى أنه ليس من الإنصاف أن يحصل كل منهما على درجة واحدة، إذا كان أحدهما أسرع من الآخر.

من هنا يمكن القول أنّ (التأني) في غير موقعه نوع من (الأفيون) يخدر الأعصاب، ويمزق الإرادة، ويربك الإحساس بالزمن، تماماً كما تفعل الكحول والمخدرات.

فشرب المسكرات يؤثّر سلباً على قابلية الشخص التسلسل الزمني للحوادث يستعمل الخبراء فقدان (ضبط التسلسل الزمني للحوادث) في سبيل الكشف عن

السكران.. وهذا بالضبط ما يحدث أيضاً لمن يتباطأ دائماً في أعماله، ويؤخّر أعماله دائماً.

على أن البعض لا يكتفي بتخدير نشاطه وتمزيق همته، بل يتجه نحو الوقت فيعتبره عدوّه، لا لسبب غير أنّ الوقت يتطلب نشاطاً وهمّة.. فلو سألت أحد الشبان عما يفعل في المقهى وحده، فهو يجيبك أنه يريد أن يقتل الوقت وذلك هو هدفه الأساسي.

وهنا ملاحظة هامة جداً، وهي أن كثيرين ينتظرون «الوقت المناسب» لأعمالهم، بينما الوقت المناسب لأي عمل هو وقت إنجازه. كما يقول الإمام علي عليه السلام: «كل شيء طلبته في وقته فقد فات وقته»[1].

(١) ألف كلمة للإمام علي عليه السلام.

الدنيا بين الغلبة عليها
أو الهزيمة فيها

لا حياد للدنيا، فهي إما أن تكون صديقة وفيّة، أو عدوّة قاتلة.

فإذا لم تتغلب عليها فإنها هي التي تتغلب عليك، ليس من جهة الأمور التي ترتبط بجسدك فحسب، حيث سيتغيّر لون شعرك، فيصبح الأسود أبيضاً، وجلدك الناعم يتراخى ويتجعد، وعظامك الصلبة توهن وتترهل، ولكنها سوف تتغلب عليك أيضاً من ناحية الهمّة والنشاط أيضاً.

إنّ من يتوقف عن التفكير والعمل والنشاط

والممارسة فإنه يوقف حركة الحياة في ذاته، فيمر عليه الزمن بعجلاته الضخمة التي ستهشم الروح، كما تهشم عظام الجسد.

إنّ الدنيا لا ترحم من لا يرحم نفسه، ولا تتغاضى عن أيّ تهاون من قبل الفرد بحق ذاته ولذلك قيل قديماً (إتعبْ، إلعبْ.. وألعبْ، تتعبْ) فمن لعب في زمن التعب فإنه سيظل مرهقاً طول عمره، أمّا من تعب في زمن التعب فإن له الحق أن يلعب بعد ذلك.

والمشكلة أنّ الإنسان الذي تضرُّبه الدنيا سيلقي باللائمة على المبادئ، فيحاول أن يردّ ذلك بالانتقام من المبادئ من خلال التحلل من الالتزامات التي يفرضها عليه ضميره ودينه.

وخطورة انحراف الإنسان عن دينه تزداد بمرور الزمن، على عكس ما يظن الكثيرون بأنّ انحراف

الشباب هو الأكثر خطورة، لأنّ انحراف الشباب عن جادة الإيمان أقل خطورة بكثير من خطر إنحراف الشيخ الكبير. فمن انحرف في شبابه، فإنه يملك فرصة للعودة إلى جادة الصواب. أما من ينحرف في شيخوخته فإن فرصته للتوبة والعودة قليلة حينئذٍ.

صحيح أن الشهوات عارمة في فترة الشباب، إلّا أنّ شهوة الروح لا تقاس بشهوة الجسد، فإذا اشتهت الروح فإنها ستدفع بصاحبها إلى وديان سحيقة لا يعرف أحد مداها.

وكم من أُناس استقاموا في فترة شبابهم، ثم سقطوا في المزالق وهم في أيّام الكهولة أو الشيخوخة، فالشيخ المتصابي أخطر من الشاب المنحرف لأنه يمارس أعمالاً يتقزز منها الصبيان.

إن ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾[1]. لا يقتصر على أولئك الذين يدّعون على الله ما لم يَقُلْهُ لهم، ولا على أولئك الذين يبيعون الناس الأديان ويتعيشون عليها، بل يشمل أولئك الذين يرفعون الشعارات الكبيرة في حياتهم ويمارؤون الناس بأفضليتهم، ثم كلّما مرّ الزمن عليهم قضموا مبادءَهم وشعاراتهم البراقة، وأكلوا عليها وشربوا.

بالطبع لابدّ هنا من التفريق بين تغيير الوسائل والأساليب وبين تغيير الأهداف، فتغيير الأساليب هو الذي يتطلبه تقلبات الزمان، ولكن تغيير الأهداف بمثابة التنازل عنها.

فمن يحدد أهدافه بوعي وإدراك، ثم تراه يتنازل عنها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

واحدة بعد أخرى، بحجة أنّ وسائله القديمة ما استطاعت تحقيق تلك الأهداف، فهو ممن يقضم مبادءَه وأهدافه، ويشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

من هنا نعرف قيمة الالتزام بالأهداف وعدم تغييرها، ذلك إنّ مِن مظاهر النجاح والعظمة هي الرغبة في تتبع الحقيقة.. وهذه بحاجة إلى الوقت المنظّم.. ولكن عدم وجود هدف معيّن، وفقدان الإخلاص له، هما اللصّان اللذان يسرقان الزمن ويُضيِّعان الفرص ويُربكان الإحساس بالوقت فنظنه طويلاً على قصره، أو نظنه قصيراً وهو طويل.

ولهذا نجد أنّ اليوم المملوء بالنشاط والمثيرات يمر قبل أن نعلم، وبالعكس، فاليوم المملوء بالانتظار، وبرغبة غير مشبَّعة للتغيير، هو يوم يبدو كأنه الأبدية بصورة مصغرة..

ألا ترى كيف أنّ كل صاحب هدف، يعمل بنشاط

وهمّة، ويرى أن الوقت يمر بسرعة، وصاحب المهنة والوظيفة عندما يقل عمله، ويزيد لديه الفراغ، يأكله السأم ويُكثِر النظر إلى الساعة، ويحتبس الطبع. كما يضيق المرء ذرعاً حين لا يكون لديه ما يُشغله.. أما حين يكثر العمل، يسترد النشاط.

فالحياة بدون هدف هي ماحلة، قاحلة، مملّة. ومعه جميلة، جذابة، ممتعة.

كيف تستفيد من
الأسفار وتتمتع فيها

ملايين من البشر يسافرون من مكان لمكان، متنقلين بين أصقاع العالم.. وبين الطائرة والسيارة والباخرة تضيع عليهم ساعات طويلة وتتلف معها أحلى ساعات العمر. وجميع هؤلاء يرون أنّ ضياع الوقت في الأسفار أمر لا مناص منه.

وقليل هم أولئك الذين لا يستسلمون لفرضية أنّ ضياع الوقت في الأسفار أمر لا مناص منه، لأنهم يدركون تماماً أنّ تضييع الوقت في أيّ مكان وزمان يؤدي إلى السأم والضجر، فاستغلال الوقت هنا لا يحقق

الانجازات فحسب، بل سيحمي المرء أيضاً من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان في سفره..

فكيف يمكن أن نحقق المتعة والفائدة في أوقات سفرنا؟

مما لا شك فيه أنّ أفضل الأمور التي نصرف عليها وقتنا هو الحصول على العلم، فهل يمكن أن تصبح الطائرة أو السيارة محلاً جيداً للتعلّم؟

ثمة حقيقة لابدّ من الإذعان لها وهي: أن طلب العلم لا يعرف زماناً ولا مكاناً، فكل الأوقات صالحة للتعلّم، كما أن كل الأمكنة محل لذلك. والأمر يعود إلى المرء وصلابة إرادته، فإن كان مصرّاً على التعلم فلن توجد هنالك أمور تعرقل طريقه، أما لو كان ضعيف العزم فإن كل الأوقات المناسبة لن تساعده على طلب العلم.

وبالطبع فإنّ هذا لا يعني أن السيارة أو القطار أو الطائرة هي أماكن مفضلة لتدارس العلم، لأن مثل هذه الوسائل تسلب من الإنسان القدرة على التركيز والاستقرار، وكلاهما ضروري لاستيعاب العلوم، ولكن المطالعة للكتب التاريخية والأدبية وأمثالها في مثل هذه الوسائل أمر ممكن، بل وفي ذلك تمام المتعة.

إنّ مطالعة الصحف المتوفرة عادة في الطائرات، ستجعلك ترتبط بالعالم، ومطالعة الكتب التي تتحدث عن الشعوب ستجعلك تتعرف على المجتمعات البشرية، هذا بالإضافة إلى ما هو متوفر من الصحافة المحلية لكل بلد، وهي تعتبر مرآة ثقافتها، فأنت عندما تطالع تلك الصحف سترى أمامك هموم وقضايا الأمم المختلفة، فمن خلال الإعلانات التجارية ستعرف الحاجات والخدمات المتوفرة في تلك الدولة، ولعل خبراً صغيراً أو إعلاناً تجارياً سيفتح لك أفقاً بعيداً.

فإذا أردت السفر إلى أيّ مكان فخذ معك كتاباً لتقرأه في الطائرة أو القطار، فليكن رواية أدبية، أو موضوعاً علمياً خفيفاً، أو أي موضوع تميل إليه. المهم أن يكون معك كتاب تقرأه.

ثم إنّ السفر يقدّم للمرء فرصة ثمينة للتأمل والتفكير في هذا الكون البديع: في السماء، وفي الأرض؛ ففي الطائرة سترى نفسك معلقاً في الهواء تسبح في الفضاء الواسع، كما هي معلقة الأرض والشمس والنجوم.

تأمّل الأرض من السماء، وانظر إلى البحر أسفلك.. وإلى كتل السُحُب الضخمة حولك.. وإلى الكرة الأرضية التي تبدو لك دائرتها عند الأفق واضحة جلية.

تأمّل عظمة خلق الله (عزّ وجلّ) وانظر إلى البنايات التي تمر من فوقها وكأنها علب كبريت، تأمّل الناس

وكأنهم النمل، تأمّل السيارات وكأنها لعب أطفال.

أتدري كم من النـزاعات تدور في تلك البنايات والشوارع، وهي تبدو تافهة من ذلك الارتفاع الذي أنت فيه؟

ثم تخيّل وكأنّك واحد من هؤلاء الناس، وغيرك ينظر إليك من السماء ويراك في صورة موجود صغير.. تصوّر كيف تنظر الملائكة إلينا، وإلى خلافاتنا وصراعاتنا التافهة في أغلب الأحيان.

ثم تأمّلْ الأشكال التي تحتك من قمم الجبال، وأعماق الوديان والجزر الخضراء.. سترى أنّ الخلق متشابه، وكأنه لوحة واحدة لرسّام واحد قدير.

فمن علياء السماء ستجد أشكالاً عديدة متماثلة لما تراه على سطح الأرض، فالغيوم ترسم لك أشكالاً من الأحياء الموجودة على الأرض، فهنا ترى شكل

ديناصور، وهناك شكل خرطوم طويل لفيل، وإلى جوارك شكل إنسان جالس، وهناك كأنّ يداً تمسك بوردة.. وهناك ترى كتلةَ سحابة تمرُّ بالقرب منك، وكأنها قنبلة ذرية إنفجرت للتو.. تأمّلها وفكّر في النظام الدقيق الذي يسير عليه كل ذلك، تأمّلْ في نظام المطر الذي يتوقف عليه إحياء الأرض، وتحوُلْ ماء البحر إلى بخار، والرياح التي تحمله إلى السماء ليتراكم على شكل سحاب، ومن ثَم يتحول السحاب إلى قطرات ماء عذبة لتروي الزرع والضرع.

أليس كل ذلك جديراً بالتأمل؟

ثم انظر إلى نفسك وقد جعلك الله محوراً لكل هذا الخلق، إذ جعل السحاب، والسماء، والأرض، والجبال، والمياه، والحيوان، طوع خدمتك.. ثم جعلك شيئاً مذكوراً بالطاقات التي منحك إياها لتتمتع

بها في الحياة، وتُمتع بها غيرك، وتستمتع أنت، وتنفع وتستفيد.

* * *

حقاً إنّ في الأسفار مناسبة جيّدة لتحقيق أمرين:

الأول: التوكل على الله (عزّ وجلّ) حيث إنّ الكثيرين يتهيبون من السفر ويتخوفون فيه، إمّا من الانتقال من مكان إلى آخر وتغيير نمط الحياة، أو من وسيلة التنقل كالطائرة أو القطار، وكلما يتعاظم خوف الإنسان، كلّما يزداد قرباً إلى الله سبحانه وتوكلاً عليه.

الثاني: إن السفر مناسبة جيدة للتوبة والرجوع إلى الله (جلّ وعلا) وخاصة عندما تتعرض طائرتك التي تسافر بها لمشكلة في الجو، وأنت تعرف بأن لا فرصة لك في النجاة إذا تعرضت قطعة صغيرة منها للعطب إلّا بالتوسل إلى الله تعالى.

وليس المقصود من ذلك أن نقول بأن الخوف ملازم طبيعي للسفر عند كل الناس.. كلّا، لأن المتخوفين في الأسفار قليلون، خاصة مع وجود وسائل للتقليل من مستوى خوفهم كقراءة أدعية السفر، وتلاوة السور القصار، ومصاحبة القرآن الكريم، وكل الأعمال التي تقوّي الارتباط بالله فإنها كفيلة بنزع دواعي الخوف من الإنسان.. فمثل هذا سيشعرك على الدوام بأنك في صحبة الله (عزّ وجلّ) الذي بيده الكون كلّه، الأمر الذي سيمنحك الشجاعة على مواجهة الخوف الكامن في كل شيء.

ولا تتصور بأنّ تفكيرك بالموت في اللحظة الحرجة من السفر يزيد في تعاستك، بل العكس إنه سيزيد من قربك إلى الله وإيمانك به.. ولا تظنّ بأنّ مجرد التفكير في الموت سيجلب لك الموت، أو أنّ كتابة الوصية ستعجّل لك بالوفاة.. فالموت مثل الحياة يأتي بقضاء الله

وقدره، فلا خوفنا منه يقرّبه إلينا، ولا نسياننا له يبعده عنّا.

ومن الأمور التي يمكن أن تستفيدها في السفر هو التخطيط لما ينبغي القيام به عند الوصول، فإذا كانت رحلتك «سفرة عمل» فيمكنك أن تخطط للقاءاتك، وتسجِّل ما يجب عليك إنجازه، وطريقة القيام بذلك.. فلماذا تترك الأمور للصدف، وأنت تملك الوقت الكافي للتخطيط لما تريد إنجازه؟

وعندما تنتهي من مخططاتك فإنك ستجد فرصة مناسبة أخرى لتغمض عينيك وتتصور تاريخ وسائل النقل البشري، وما مرّت به من مراحل التطور عبر الزمن.. تاريخ الطيران ومغامرات الذين بدأوا أولى محاولاتهم في الطيران مثل «عباس بن فرناس» في تاريخنا الإسلامي القديم، والأخوان «رايت» في التاريخ الحديث، وتتصور كذلك مراحل صنع الطائرات، والمشاكل

والصعوبات التي اعترضت طريق الذين سعوا إلى تطويرها.

* * *

وفوق ذلك كلّه فإنّ السفر أفضل مناسبة لكسب المزيد من الأصدقاء، فهو من جهة سيكشف لك حقيقة أصدقائك القدامى، ومن جهة ثانية سيمنحك فرصة للتعرف على أصدقاء جدد من مختلف أنحاء العالم.

فكثير من الناس يكوّنون علاقاتهم في الأسفار حيث يكون وجودهم على مقاعد متقاربة في الطائرة هو السبب في التعرف عليهم، وليس من شك أنّه لا يمكنك أن تكسب صديقاً من قارات العالم الخمس إلّا في حالة السفر، أما إذا كنت جالساً في بيتك فكيف يمكن أن تحصل لك فرصة التعرف على رجل من الهند، وآخر من الولايات المتحدة الأمريكية، وثالث من أفريقيا، ورابع من آسيا؟

هنا قد يتساءل أحدهم كيف لي أن أكوِّن الصداقة في الطائرة، أو القطار؟

والجواب: إنّ الأمر سهل جداً، وذلك بأن تبتدئ بالسؤال من الرجل الجالس إلى جنبك عن اسمه، ودولته، وعن مدينته، عمله..

ثم أن تفتح له قلبك وتجامله في بعض المواقف: أن تقدم له كوباً من الماء، أو تساعده في أمر من الأمور، فإنك لو فعلت ذلك فإنك ستكسب إنساناً قد ينفعك طوال عمرك..

وهكذا ستقضي أحلى الأوقات مع صديقك الجديد أثناء سفرك، وربما تتمنى لو تطول فترة السفر هذه لتتعرف أكثر فأكثر عليه وتستأنس به.

* * *

ومن القضايا الممتعة في الأسفار أن تكتب

مشاهداتك فيها. ألا ترى كيف أن «ابن بطوطة» إنما نقل للناس ما شاهده في أسفاره، فأصبحت رحلته معروفة في التاريخ، وأضحت مرجعاً للمؤرخين والباحثين؟

حقاً إنّ في الأسفار فرصاً ثمينة يمكن إستغلالها بدل إجترار السأم والضجر، أو القلق من أخطار الرحلة، بينما هناك وسائل كثيرة لقضاء أجمل الأوقات في أسفارنا إذا اخترنا الوسيلة المناسبة لاستثمار الوقت الضائع فيها.

وللإسلام آداب خاصة في السفر من شأنها أن تزيد الرحلة متعة وجمالاً، وتعطي شعوراً بالأمل، وتمنح المسافر الراحة النفسية، وتبعد عنه القلق والخوف من مخاطر الطريق. من هذه الآداب قراءة الأدعية الخاصة بالسفر ودفع الصدقة، وحُسن الخُلق، وطيب المعاشرة، والتعاون مع الرفاق.

يقول النبي ﷺ: «الرفيق ثم السفر»[1].

ويقول ﷺ: «ما اصطحب إثنان إلّا كان أعظمهما أجراً، وأحبهما إلى الله عزّ وجلّ أرفقهما بصاحبه»[2].

ومن آداب السفر أداء الفرائض لوقتها، وتلاوة القرآن، ومساعدة الناس.

ومن آداب السفر الكرم، والسخاء، والمزاح مع رفاق الطريق، وكثرة التبسم في وجوههم، والالتزام بالمروة، وهو ما فُسّر بكثرة الزاد وطيبه، وبذله لمن كان معه. فقد كان علي بن الحسين عليه السلام: إذا سافر إلى مكة للحج أو العمرة، تزوَّد من أطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمّص والمُحلّا.

ومن الآداب أيضاً الأناقة، وحسن الهندام، والمظهر الجميل، وهي من الأمور التي تبعث على

---

(١) مكارم الأخلاق، ص ٢٥١.

(٢) المصدر، ص ٢٥٢.

الراحة النفسية، وكان النبيﷺ إذا سافر يأخذ معه المشط والمسواك والمكحلة. وكانﷺ يمزح ولا يقول إلّا حقاً.

ومن آداب السفر، أن يأتي المسافر بالهدايا إلى أهله وأصدقائه إذا أمكن، يقول النبيﷺ: «إذا خرج أحدكم إلى سفر ثم قدم على أهله فليُهدهم، وليطرفهم ولو حجارة»[1].

ويقولﷺ: «من أعان مؤمناً مسافراً نفّس الله عنه ثلاثاً وسبعين كربة، وأجاره من الغم والهم في الدنيا والآخرة، ونفّس عنه كربه العظيم يوم يعضُّ الظالم على يديه»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٢٨٣.

(٢) مكارم الأخلاق، في نوادر السفر، ص٢٦٦.

كن مبتسماً
فهذا من جمال الروح

الابتسامة تزيد الوجه الجميل إشراقاً، وتضفي على الوجه القميء مسحة من الجمال، وهي على بساطتها مفتاح الأبواب المغلقة، وتأثيرها أكثر من تيار يشق الطريق إلى نيل المآرب وبلوغ المطالب.

وفي هذا الشأن يقول رسول الله ﷺ: «إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه، وحُسن البِشر»[1]، فما يصعب عليك نيله بالوسائل المادية، قد يسهل عليك تحقيقه بالابتسامة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٠٣.

فالابتسامة تحقق أمرين:

الأول: إنشراح صدر صاحب الابتسامة، وإن كان حزيناً في أعماقه.

الثاني: بعث السعادة في قلب من يبتسم له.

ثم إن الابتسامة لا تكلّف المرء شيئاً فهي تحرك ثلاثة عشر عضلة من عضلات الوجه، بينما العُبوس يستخدم خمسة وأربعين عضلة من عضلات العابس فهو يوتِّر هذا العدد من عضلاته ليصبح وجهه مقطّباً قبيحاً، وهذا يعني أن الابتسامة تريح الأعصاب بينما العبوسية ترهقها. ومع ذلك فهي تضر ولا تنفع، والابتسامة تنفع ولا تضر.

ومن الغريب أن للابتسامة إشعاعاً قوياً يدفع الآخرين إلى تقليدها، فالابتسامة لها «عدوى»، فإذا تعوّد أحدنا عليها فإنه سيفرض على محدثيه أن يبتسموا له بمقدار ما يبتسم لهم.

ألا ترى، كيف أنه حتى الطفل الرضيع يبتسم لك إذا ابتسمت له، ويتهلل وجهه إذا قابلته بسرور؟

حقاً إنّ الابتسامة هي حبالة المودّة، ومصيدة التاجر الناجح، ولذلك قال أهل الصين: «إنّ من لا يعرف كيف يبتسم لا ينبغي له أن يفتح متجراً».

وفي ذلك أيضاً قال الإمام علي عليه السلام: «حُسن البشر، من علائم النجاح»[1].

وقد حدث أنّ عمال أحد المحلات التجارية الكبيرة في باريس طالبوا المالكين برفع أجورهم فرفض أصحاب تلك المحلات زيادة رواتبهم، فعمد العمال إلى حيلة أبعدت الزبائن عن تلك المحلات، وذلك بأن عمدوا إلى تقطيب جباههم للزبائن، كرد فعل استنكاري على امتناع أصحاب العمل عن رفع الأجور، وقد أدى ذلك إلى إنخفاض دخل تلك المحلات في الاسبوع الأول

---

(١) غرر الحكم، ج ٣، ص ٣٩٤.

بحوالي ٦٠٪ عن متوسط دخلها في الأسابيع السابقة.

إنّ الناس يرغبون في شراء السلع من المحلات التي يحصلون فيها على الابتسامة، ولربما إعتبر بعضهم أن الابتسامة أهم من السلعة نفسها، فالمتبضع يختار البائع المحبوب قبل أن يختار السلعة المطلوبة، وعن ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «وجهٌ مستبشر خيرٌ من قطوب متوتر»[(١)].

ويقول عليه السلام أيضاً: «من بخل عليك بِبِشْره لم يسمح ببرّه»[(٢)].

فكيف تثق بتاجر يبخل بالابتسامة عليك، وهي لا تكلفه شيئاً. وتطمع في أن ينصفك في معاملته؟

يقول الإمام علي عليه السلام: «البِشر إسداء الصنيعة بغير مؤونة»[(٣)]، أي إنه عطاء بلا خسارة، وربح بلا تكلفة.

---

(١) المصدر، ج ٦، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر، ج ٥، ص ٤٦٥.

(٣) المصدر، ج ١، ص ٣٨٩.

ومن جواهر كلامه عليه السلام أيضاً قوله: «البِشر مَبرّة، والعُبوس مَعرّة»[1].

* * *

هذا وللابتسامة تأثيرها على قسمات وجه الإنسان، فهي تحافظ على نضارة شبابها، بينما العبوسية تورث إنكماش الجلد وظهور التجاعيد.

وكان اليابانيون يفضّلون الفتاة التي على وجهها إشراقة الابتسامة للزواج على أية فتاة أخرى.

والحق: إن لابتسامة المرء منظراً مونقاً، وخلقاً مشرقاً، فهو يؤنس الرفاق، ويدل على خِلّة الوفاق.

والابتسامة مطلوبة حتى في أكثر الظروف حراجةً، لأنه تكون عوناً للمرء في رفع معنوياته واطمئنانه، ولهذا جاء في حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «بِشر

---

(١) المصدر، ج ٣، ص ٢٨٨.

المؤمن في وجهه، وحزنه في صدره...»[1].

* * *

لقد صَرّح مدير أحد المخازن الكبرى بأنه يفضل العامل البشوش الذي لم يحصل على شهادة الابتدائية، على خرّيج الجامعة الذي تعلو وجهه العبوسية والتجهم.

والحق إنّ الابتسامة هي نتاج التواضع، والشجاعة، فكلاهما تعتمد على الثقة بالنفس، والتفكير الهادئ، وهي ليست هبات تمنحها العناية الإلهية لعدد قليل من الموهوبين، وتحرم منها الآخرين، بل هي أشبه ما تكون بركوب الدراجة أو السباحة.. فكل شخص قادر على تنمية قدرته على ذلك مادامت لديه الرغبة فيه، ويتمتع بثقة عالية في نفسه.

لنتعلم من رسول الله ﷺ الذي كان ضحوكاً بشوشاً، وكان جُلُّ ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حبة الغمام،

---

(١) المصدر، ج ٣، ص ٢٨٨.

وكان يمازح أصحابه ويلاطفهم، ولكنه لا يقول إلّا حقاً.

وقد روي عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ تبسّم حتى بدت نواجذه.

وروي عن أبي الدرداء: قال: كان رسول الله ﷺ إذا حدّث بحديث تبسَّم في حديثه[1].

هكذا كان رسول الله ﷺ فمن أراد أن ينجح فليتعلم منه، فقد كان ﷺ أفضل الناس وأنجحهم.

(١) مكارم الأخلاق، للطبرسي، ص ٢١.

كيف تتعامل مع التوافه؟

تنقسم الأمور بشكل عام إلى قسمين: توافه، ومهمات. وصاحب الحكمة يتعامل مع الأشياء حسب ما هي عليه، فيتعامل مع التوافه بتفاهة، ومع المهمات بهمّة.

فعنايتنا يجب أن تختص بما هو مهمّ، أما التافه فلابدّ أن نرميه في البحر من دون ندم. هذا ما يفهمه جميع الناس إلّا أنّ المشكلة تكمن أحياناً في اختلاط التافه من الأمور بالهام منها، ويكون من الصعب التمييز بينهما.

والسؤال هنا هو: ما هو الميزان لمعرفة التافه من المهم؟

والجواب: إنّ المهم هو كل ما يرتبط بوجود الإنسان ومصيره ومستقبله، وبوجود الناس ومصيرهم ومستقبلهم.

أما التافه فهو كل ما لا تأثير له على حياة الإنسان بحيث يكون وجوده وعدمه واحداً.

ولعل من التوافه التي يوليها بعض الناس أهمية كبرى هي؛ الكلمات النابية التي قد يسمعها المرء من هذا أو ذاك، وأنواع النقد الجارح، أو السب والشتم والإهانة، وقلة الاحترام.

فهناك من الناس من يشعر بأذى بالغ لأقل كلمة تقال له ويثور على قائلها، وكأن الشتيمة تهدد حياته بالفناء، مع أن مليون كلمة تافهة لا تشكل خطراً بحجم لدغة بعوضة واحدة.

وقد يُبرّر أمثال هؤلاء مواقفهم هذه بأنهم إنما يثأرون لكرامتهم وكبريائهم، فلماذا يعتدي الآخرون عليهم؟

غير أن الأمر الذي لا يشك فيه أنّ الذي يثور لأتفه الأسباب إنما هو مهزوز الشخصية، ضعيف الإرادة، لأنه في الحقيقة لا يستطيع أن يضبط أعصابه وتوتراته في الظروف الحرجة.

فمن يعتبر الشيء التافه بمثابة خطر جدي يهدده فهو شخص ضعيف، بعكس صاحب الشخصية القوية فإنه يتصرف كصخرة صماء تتحطم عليها أمواج البحر، أو كجبل شامخ لا تهزّه الرياح السافيات.

فمن يشعر بعزة حقيقية في نفسه لا يثور لبعض ما يسمعه من كلمات نابية هنا وهناك.

وفي الحق فإن النقد الجارح لا يجرحك بمقدار ما يجرح صاحبه، فلو كان يحترم نفسه لكان نقده بنّاءً، والذي يسبك لا يقلّل من شأنك بمقدار ما يكشف عن وضاعة نفسه وحقارتها، وقد سمع أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام، فقال

لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم...»[1].

إنّ كلمات السوء مركب من مراكب الشيطان لإثارة العدوان وتأجيج الحروب، وخلق المشاكل في الأسرة الواحدة، أو الأمة الموحدة، أو الوطن الواحد.

إنّ الكلمات تخرج من لسان ناطقها مركبة من حروف لا معنى لها بذاتها، لكنها عندما تُدمج في الجملة عند ذلك سيكون لها وقع خاص على قلب سامعها الذي يتحسس من أية كلمة ذات لفظ بذيء ومراد مهين، ومَن يحترم نفسه فهو يتحاشى أن يقول كلمات خشنة بحق غيره، لأنه لا يحب أن يسمع مثلها. فما من إنسان إلّا وهو يحب توطيد العلاقة بالناس، فلربّ كلمة

(١) شرح النهج، ج ١١، ص ٢١.

سوء أدّت إلى قطيعة تطول آثارها، من غير إدراك من صاحبها بأن مثل تلك الكلمة يمكن أن تقضي على عشرات السنين من الصحبة، وتستبدل الصداقة بالعداء، والمودّة بالبغضاء.

إنّ كلمات السوء مهما كانت صغيرة فهي تشبه النار؛ فلربما يكون عود كبريت صغير سبباً لحريق كبير، وكذلك تفعل الكلمات النابية، فكم من حرب بدأت بكلمة بذيئة خرجت من لسان أحد طرفي النزاع، وكم من المشاحنات والمطاحنات والخلافات العائلية والاجتماعية؛ أثارتها كلمات فحش أو تهمة صدرت من أحد الأفراد؟

ولقد شهدتُ هذا النوع من الخلاف بين شخصين كانت صداقتهما تمتد قرابة النصف قرن من الزمان؛ غير إنّ كلمة بذيئة صدرت من أحدهما في فورة غضب غير مبرَّرة، أدّت إلى تأزّم العلاقة بينهما وتبددت تلك العلاقة الطيبة، وحلّت مكانها النفرة والضغينة، وفشلت كل

وساطات المصالحة معهما، واستمر الخلاف بينهما حتى حلّ بهما الموت؟

قد يظن البعض أنّ كلمة السوء، نظراً لسهولة النطق بها محدودة العواقب، متجاهلين أنّ الشيطان يستغل أموراً صغيرة لتأجيج نار الغضب والتناحر بين الأفراد والجماعات، مستخدماً الكلمات البذيئة والفحش مطيّة له، فيثير الأحقاد والضغائن، وهذا ما أشار إليه ربّنا (عزّ وجلّ) في قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

* * *

وهنا قد يتساءل البعض: كيف يمكن لصداقة عميقة دامت أمداً طويلاً أن تختزن في داخلها عداءً عريضاً، بحيث أنّ كلمة سوء واحدة يمكن أن تحوّلها إلى عداءٍ مبين!؟

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

والجواب: أنّ هناك منبعين في وجود الإنسان أحدهما للحب، والآخر للبغض. فمنبع الحب يختزن فيه الودّ، والألفة، والانسجام.. ومنبع الكراهية يختزن البغضاء، والفرقة، والحقد وما يفتح الطريق إلى أحد هذين المنبعين هو ما يحيط بهما من الأجواء والظروف.

ولا يخفى أن الشيطان هو الذي يثير نبع الكراهية والبغضاء والعصبية في دم الإنسان ليوصله في النهاية إلى قلبه، بينما الأنبياء والرسل عليهم السلام هم الأدلّاء على نبع الخير والصفاء والمحبة والعطاء.

ففي قلب كل إنسان نداءان: أحدهما يهديه لعمل الخير، وثانيهما يدعوه لعمل الشرّ، فنزعة البخل مثلاً تجرّ الإنسان إلى الخسّة والضعة، بينما نزعة الكرم تجرّه إلى التعالي والسمو، وليس هناك إنسان مخلوق للبخل فقط، كما ليس هناك إنسان مخلوق للكرم فقط! والنداءان هذان يلقيان على القلب طنينهما، أحدهما يقول لصاحبه: أنفق ما استطعت، والآخر يقول: أمسك

يدك، ونداء يقول: إبذل محبتك للآخرين، ونداء يثير البغضاء ضدهم.

ولا تنسَ أنّ نفسك تحمل في دواخلها هذين الندائين ولك الخيار، فلو أردت أن ترتوي من نبع المحبة فما عليك إلّا أن تسير في طريق الهداية لتصل إلى منبع الرحمة الإلهية، ولو سلكت طريق الضلال والكراهية فسوف تصل إلى منبع الشرور والآثام.

ومن هنا فإنّ الإنسان مسؤول عن كل كلمة يقولها، لأن الكلمة تعبّر عن موقفه، فكلماتك هي مواقفك، وعلى هذا يجدر بالإنسان أن يتوقف عند كل موقف أوكلمة ويحسب لهما ألف حساب، إنّ القرآن الكريم يجعل أنبياء الله الكرام مناراً وقدوة، فقد كانوا يتورعون عن النطق بأية كلمة نابية، بل ويقابلون الإساءة بالإحسان حتى في حق أعدائهم الذين كانوا يتحينون بهم الفرص لينالوا منهم، فكانوا يقولون لأعدائهم كما يروي لنا القرآن الكريم ذلك: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، فهم على دراية بأنهم على هدى بلا أدنى ريب، لكنهم فضّلوا عدم الانتقاص من أعدائهم، مراعاة منهم لآداب الحوار السليم.

ولو افترضنا أنّ صدرك قد ضاق من تصرّف شخص أو جماعة، وأردت أن تعبّر عمّا يجيش في نفسك، ولو بهمز أو غمز، عند ذلك سيكون أمامك طريقان: طريق سهل لكنّه ينتهي بك إلى سبيل الشيطان، وهو أن تفرغ ما في صدرك من كلمات سوء.. أو تختار الطريق الصعب ولكنّه يوصلك إلى الرحمة الإلهية والاحتفاظ بمودة الناس وذلك عن طريق «كظم الغيض».

إنّ من الحكمة أن نغضّ الطرف عن أخطاء أصحابنا: إذ مهما كان عدد أخطائهم فأخطاؤنا أكبر عدداً..

يقول عيسى بن مريم عليه السلام لليهود: «أيرى أحدكم

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

القذاة في عين غيره، ويغبي عن الجذع المعترض في عينه»[1]؟

وكأن الشاعر أخذ هذا المعنى فقال:

أتبصرُ مـا فـي عين غيرك من قذى

وتغفَلُ عن عينيك مُعترِضَ الجذلِ؟

فكفُّ اللسان عن الناس يحفظنا من ألسنتهم على الأقل، لأن النقد يولّد النقد.. والغيبة تورث الغيبة.. والكراهية تولّد الكراهية..

إنّ من الخطأ الفاحش أن نخرج إلى الناس وأيدينا مقبوضة استعداداً للنزال دفاعاً عن ذاتنا.. فهذا يدل على انعدام الثقة بهم.. وقد قال أحد المفكرين: «من الصعب عليَّ أن أصافح يداً مغلقة».

وأفضل نصيحة يمكن تقديمها في هذا الصدد ما قاله

---

(١) وفي رواية السيد عبد الله شبّر / كتاب الأخلاق / ص ١٣٠: في حكمة آل داوود... الخ.

رسول الله ﷺ حينما حدد المفردات الأخلاقية قائلاً:

«المكارم عشر، فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن، فإنها تكون في الرجل ولا تكون في وُلده، وتكون في وُلده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في الحرّ.

قيل: وما هنّ يا رسول الله؟

قال ﷺ: «صدقُ البأس، وصدقُ اللسان، وأداءُ الأمانة، وصلةُ الرحم، وإقراءُ الضيف، وإطعامُ السائل، والمكافأةُ على الصنايع، والتذممُ للجار، والتذممُ للصاحب، ورأسهن الحياء»[1].

(١) كنز العمال، ج ٣، ص ٤.

لا تتعامل مع الدمى الصغيرة

من يريد أن يبدو عملاقاً بلا استحقاق، يتجنّب عادةً التعامل مع الأقوياء، لأنه يهاب منـزلتهم وسطوتهم، كما لا يرغب في أن يبدو صغيراً إلى جانبهم، من هنا فهو يختار فئة من الضعفاء لتسيير أعماله، ويعتمد عليهم في السرّاء والضرّاء، وكثيراً ما يغمط حقهم من دون أن يعترضوا عليه، ويرتاح في الوقوف معهم لأنه يبدو كبيراً بالقياس إليهم.

غير أنّ هذا خطأ كبير، لأنّ الرجل العظيم هو من يكون عظيماً بين العظماء، وإلّا فإن كل طفل يبدو عملاقاً بين الأقزام.

ولعل صاحب القصة التالية خير مثال لمن يتعامل مع الأقوياء. فهذا الرجل ويدعى (أوغليفي) درس في جامعة (أكسفورد) لكنه لم يكمل دراسته مما اضطر للعمل طاهياً في أحد مطاعم باريس، ثم اشتغل بائعاً للمواقد في لندن وبعد ذلك مزارعاً للتبغ في (بنسلفانيا).

ثم قام بتأسيس خامس أكبر وكالات الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية، والسادسة في العالم وهي شركة (أوغليفي وماثر).

كان ذلك في مدينة نيويورك عام ١٩٤٩ م، وكان سبب نجاحه أنه اتخذ قراراً هاماً في حياته، وهو آنذاك لم يكن قد تجاوز السابعة والثلاثين من عمره، حيث صمّم على أن يعتمد في مشروعه على الأقوياء وذوي الطموح العالي.

وكان من قواعد تعامله التي لا تقبل الجدل أنه يطلب استخدام ذوي الشخصيات الرفيعة في مؤسسته، ولا

يقبل المهزوزين من ذوي الأفق المحدود.

وذات يوم اجتمع هذا الرجل بمجلس إدارة مؤسسته، ووضع أمام كل مدير من مدرائه دمية، وقال لهم: هذه أنتم، وليفتح كل واحد منكم دميته..

وحينما فتحوها وجدوا داخل كلٍّ منها دُمية أصغر، ثم فتحوا الثانية فوجدوا داخل كل دمية، دمية أصغر منها، وكرروا الأمر للدفعة الثالثة، وما وجدوا إلّا دمية أصغر من سابقتها.

وعندما وصلوا أخيراً إلى النهاية وجدوا في أصغر الدمى ورقة كُتبت عليها العبارة التالية: «إذا استخدمتم دائماً أُناساً أصغر منكم فستبقى لدينا شركة أقزام، أما إذا استخدمتم دائماً أشخاصاً أكبر منكم فستصبح لدينا شركة عملاقة».

وبالفعل فقد أصبحت شركته عملاقة بين كل الشركات العاملة في مجالها.

ولنا أن نقول بأنّ طريقة التعامل مع الضعيف من أجل بسط الهيمنة عليه إنما هي طريقة الطغاة، فهم يكبرون على حساب شعوبهم، ويحاولون تحقيق عظمتهم عن طريق تحقير الآخرين وإذلالهم.

غير إنّ هذا الأسلوب الخاطئ لا يؤسس إلّا دولة قزمة، في حين أن من يطلب التقدم والرقي لنفسه، أو لأمته لا يبحث عن الضعفاء ليكبر على حسابهم، ولا الأقزام ليبدو عملاقاً إلى جنبهم. وإنما يبحث عن الكبار، ليحقق بهم آمالاً كبيرة، ويصنع إنجازات كبيرة في الحياة.

قَرِّر أن تكون عظيماً !

شئت أم أبيت فإنّ في داخلك مخزوناً هائلاً من الإمكانات والطاقات، وهي لا تقل عن طاقات كل العظماء الذين سبقوك من رجال التاريخ.

ولأجل الاستفادة من هذه الطاقات فإنك بحاجة للقيام بخطوتين:

الأُولى: إكتشاف أنواع الطاقات التي بداخلك.

الثانية: إستخراجها، وبلورتها، واستعمالها في خدمة الإنسانية.

فتماماً كما هو الأمر بالنسبة إلى المعادن القابعة في أعماق الأرض، فإن الإنسان أيضاً في جوهره معادن لا

تقدّر بثمن، وهي مخفية حتى عن نظر صاحبها، فهي بحاجة إلى من يكتشفها ويخلّصها، ويفك إسارها من عالم الباطن لتنطلق نحو العالم الوسيع، وتنفع الحياة والأحياء.

تُرى، كيف يمكن الاستفادة من هذه الجواهر الثمينة من دون معرفة وجودها، ومن دون إستخراجها؟

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»[1].

فكما أنّ اكتشاف الذهب هو الخطوة الأُولى في طريق استخراجه، فإن اكتشاف الذات هو الخطوة الأُولى أيضاً في طريق النجاح وتحقيق الآمال.

وقد تقول: كيف أتأكد من وجود الطاقات الهائلة في داخلي؟

والجواب: إنّ الله (سبحانه وتعالى) الذي خلقك،

---

(١) غرر الحكم، ج ٢، ص ١٢٦.

هو الذي جعل فيك هذا المخزون من القدرة لتسخير الكون، وجعل الشمس والقمر والأرض والنجوم في خدمتك.

الإنسان القديم نظر إلى هذه المخلوقات العجيبة بانبهار، فشعر بالصغار أمامها وقام بعبادتها، ولكن بعد تقدم الإنسانية وتطورها ووصول الإنسان للقمر، شعر حينئذ بقدرته الهائلة على فهم واستيعاب هذا الغامض من الكون وتسخيره لخدمة الحياة والعلم.

الإنسان القديم شعر بالضآلة أمام الكون، لأنه لم يكن يعرف ما في داخله من القدرات والإمكانات، ولم يكن يتصور يوماً أن تطأ قدماه وجه القمر.

لقد كان إكتشاف الذات لدى بعض الناس السبب وراء كل هذا التطور الهائل الذي نراه، لأن هذا النوع من المعرفة يؤدي إلى معرفة أكبر بالمحيط والعالم الخارجي.

تعال الآن وحاول أن تتصرف وكأنك ذو قدرات هائلة، كما لو كان بمقدورك أن تصبح كاتباً ناجحاً، أو شاعراً موهوباً، أو خطيباً مفوّهاً، ثم حاول أن تكتب المقالات، وتنظم قصائد الشعر وتخطب؛ فهذه الأمور ليست بحاجة إلى شيء إضافي غير ما هو موجود في داخلك وما هو متوفر لك في الحياة.

قد تقول: إنني لم أنظم قصيدة حتى الآن، فكيف أصدّق بأني أصبحت شاعراً؟

والجواب: إنك فعلاً شاعر، ولكنك لم تنظم قصيدة، فشاعريتك محبوسةً بين أضلاعك، وما عليك إلّا أن تكسر الطوق الذي يقيِّدها لكي تنطلق وتصبح شاعراً، تماماً كما إنك بطل رياضي؛ غير أن عضلاتك لم تمارس دورها لتحقيق هذا الهدف.

فمن دون أن تفعل؛ لن تتفاعل، ولذلك فإنه من دون أن تنظم قصيدة لا تصبح شاعراً، فكل الذين نظّموا

قصائد شعرية أو قاموا بمشاريع ناجحة في أي مجال من مجالات الحياة.. لم تكن عندهم في يوم من الأيام تلك المواهب، فهل معنى ذلك إنهم لم يكونوا يمتلكون الطاقة اللازمة لذلك؟

إنّ الناس سواسية في الخلق، وما حدود الذكاء والغباء بينهم إلّا حدود مصطنعة، فكم من أشخاص فشلوا في الدراسة ولكنهم نجحوا في أمور أكثر عسراً وصعوبة، فالناس متساوون في القدرات والطاقات.. والناجح فيهم هو من يكتشف مخزون الطاقة التي في ذاته وينمّيها ويستثمرها في الحياة.

* * *

لقد مرّ على الإنسان يوم لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، فمنحه الله (عزّ وجلّ) الحياة وأعطاه القدرة على إدارتها، فالقرآن الكريم يقول: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾[1].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.

فهل ذلك يعني إنه مازال ليس شيئاً مذكوراً؟

بالطبع: لا، وهكذا في كل ما يرتبط بك، فأنت لم تكن تملك المواهب لكنها موجودة فيك، ويمكن إستخراجها.

وعلى كل حال؛ صدّق أو لا تصدّق فإنك عظيم حقاً!

أما الطريقة الناجعة في تنمية المواهب والطاقات فهي التفاعل مع البيئة المحيطة، بأن يضع أحدنا نفسه في الإطار الذي يتأقلم معه ويستفيد من القابليات المتوفرة لديه، ثم يحاول ببذل جهوده أن يوسع تلك القابليات.

ومن الأمور التي تنفع كثيراً في هذا المجال صفة التواضع، لأن المتواضع يضع نفسه في مكانها الطبيعي، وبذلك يأتيه النجاح ويكون مفاجأة سارة جداً له، لأنه أساساً لم يكن يرى أن النجاح مضمون. أما المتكبر الذي يضع نفسه في غير موضعها فإن الفشل يأتيه مباغتة

وسيؤلمه كثيراً، وسيكون وقعه عليه مثل وقع اصطدام سيارة بمطبات غير متوقعة.

حقاً إنّ التواضع يرفع الشخصية. أو كما قال أحد الحكماء الصينيين: «إن الأنهار والبحار تستقبل مياه الجداول الصغيرة، والسبب لأن هذه الجداول نُصبت لكي تبقى تابعة».

وبعبارة أخرى، فإن هذا الحكيم يطلب ممن يرغب بأن يكون عظيماً من الناس: أن يضع نفسه في منزلة أقل من مستواهم، وفي هذه الحال فإنه عندما يصبح مكانه فوقهم لا يشعرون بثقله.

ثم إنه إذا قام الإنسان بعمل صالح واحد كل يوم لأصبح مجموع أعماله الصالحات (٣٦) ألف عمل صالح خلال عشر سنوات.

تُرى كم ستكون سعادة أبناء مدينة متوسطة السكان إذا قام مائة شخص بعمل صالح واحد كل يوم لمدة عشر سنوات؟

مثل هذا الأمر لو حدث، يساهم في صنع البطولات في الأمم، ويكون الأرضية الصالحة لقيام أمة صالحة.

حقاً إذا تعوّد الإنسان على فعل الخير وأصبح ذلك جزءاً من حياته اليومية، فهو بلا شك يصبح بطلاً من الأبطال، شأنه في ذلك شأن من يقوم بالمغامرة بحياته من أجل قضية مقدسة.

وقد تسأل: ما هو العمل الصالح؟

والجواب: إنه كل ما ينفع الناس مثل مساعدة الفقراء، أو الوساطة لحل نزاع بين شخصين، أو إسداء نصيحة للآخرين، أو تأسيس مشروع خيري، أو التبرع بالخدمة للصالح العام.

وهذه الأعمال مثل الأرض الصالحة التي تنمو فيها الأشجار المثمرة، وإلى ذلك أشار أميرالمؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حينما قال: «إعلم أنّ لكل عمل نباتاً، وكل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة،

فما طاب سقيه، طاب غرسه وحلّت ثمرته.. وما خبث سقيه، خبث غرسه، وأمرّت ثمرته»[1].

فلو قرّر كل واحد منّا على أن لا يترك للنهار أن يمرّ إلّا وقد ترك عملاً نافعاً لمصلحة الناس، فإنه بذلك سيشيد تمثال بطولته بيديه.

لقد كان المسلمون الأوائل يقومون بأعمال خارقة، ويؤدون بمفردهم أعمالاً قد لا تقوم بها الحكومات في الوقت الحاضر، مثل تشييد المدارس، وبناء المساجد، وإقامة الجسور، وإنشاء القناطر، وفتح القنوات لري الأراضي، وتأسيس المستشفيات، وأمثال ذلك كان يقوم بها أفراد من المجتمع. وكانوا يصرفون أموالاً طائلة للمشاريع الخيرية، مثل مساعدة الأرامل واليتامى والغرباء.

وربما قام فرد واحد من المسلمين بإنشاء مدارس

---

(١) نهج البلاغة، خ ١٥٤.

إسلامية كثيرة وأوقف لها أوقافاً كثيرة جداً للصرف عليها، وأحياناً كان ريع الأوقاف تلك أكثر بكثير مما تحتاج إليها تلك المدارس، كل ذلك تطبيقاً لقول الرسول ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو كتب علم ينتفع بها الناس، أو ولد صالح يدعو له»[1].

إن البطولة في نظرهم لم تكن في الحصول على الجوائز والميداليات والأوسمة، إنما كانت في العمل الصالح. فمَن يتقي الله ويحذر الآخرة ويعمل الصالحات كان هو البطل. لا مَن يبني مجده على حساب الناس، كما هو متعارف عليه في الوقت الحاضر.

حقاً إنّ البطل هو من يُقدّم للناس خدمة عظيمة، ويعمل ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم. تلك هي العظمة. وتلك هي البطولة.

---

(١) تنبيه الخواطر، ص ٣٥٢.

فهل بإمكانك أن تصبح بطلاً؟

ليس بالضرورة أن يكون الجواب: كلّا، وليس بالضرورة أن يكون: نعم، ذلك أن للبطولة ثمناً لابدّ من دفعه حتى تحصل عليها، ومن يريد البطولة بلا ثمن فلن يحصد إلّا خيبة الأمل..

فيا تُرى ما هو ثمن البطولة إذن؟

إن الثمن قد يكون أن تبذل كل ما تملك من مال، أو تضحي بكل ما عندك من جاه، أو تغامر بحياتك كلها في سبيل ما تؤمن به، أو على أقل التقادير أن تستقطع من راحتك وشبابك بعض الشيء لمصلحة غيرك.

فلكي تحصل على وسام البطولة لابدّ وأن تكون مستعداً لدفع الثمن، وأن تدفعه بالفعل إذا تطلب الأمر لأن الاستعداد وحده قد لا يكفي.

فالبطولة قد تكون لوحة ملطّخة بالدم معلّقة على جدارية المغامرة بالحياة، والأبطال هم أولئك الذين

يضعون جماجمهم في أكفهم ويدخلون في تنور المشاكل والصعاب وهم على استعداد للتضحية بأغلى ما يملكون لتحقيق ما يصبون إليه.. فبعضهم يلقى حتفه في وسط الطريق، وبعضهم الآخر يكمّل الطريق إلى نهايته.

ولربما لا تُتاح لك إطلاقاً فرصة إنجاز أعمال بطولية كتلك التي عُرف بها الأبطال في التاريخ، إلّا أنّ فرصة القيام بالأعمال الصالحة متاحة لك في كل حين، والسعي الدائم لإنجاز الأعمال النافعة قد يؤدي إلى المجد والعظمة، بينما السعي إلى ذلك من غير الصالح من الأعمال يؤدي إلى الهاوية.

فأبطال التاريخ كانت لهم الأسبقية في عمل الصالحات، إذ أنّ أعمالهم تلك تتراكم بمرور الزمن لتصنع الكتلة المطلوبة لنمو البطولة.

ولا شك أنّ العمل الصالح يعطي ثمره لا محالة، فمن سنّة الله الجارية في الخلق هي: أنّ من يعمل مثقال

ذرة خيراً يره، كما أنّ من يعمل مثقال ذرة شراً يره. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى نقطة أخرى هامة وهي أن البطولة تفرض عليك أيضاً امتلاك روح كبيرة كالبحر تستوعب في داخلها المشاكل والصراعات، من دون أن تخضع لها.

وبكلمة؛ إن للبطولة شروطاً إذا اجتمعت كانت البطولة، وقام البطل، وإذا لم تتوفر فلا بطولة ولا بطل..

استخدام الطاقات
السلبية والإيجابية

في داخل الذرة هنالك حالتان متناقضتان:

الأُولى: حالة الانجذاب إلى المركز.

الثانية: حالة الانفلات عن المركز.

فالنواة تسحب إليها الألكترونات بقوة، بينما الألكترونات تهرب منها بقوة أيضاً.

وكما في الذرة كذلك في الإنسان، حيث تتجاذبه حالتان متناقضتان: إحداهما إيجابية تشدّه إلى الناس، وأخرى سلبية تبعده عنهم.

فالأمور السلبية ينظر إليها أغلب الناس على أنها

طاقة مدمرة لابدّ من التخلص منها أو نسيانها، ولكن النسيان والتنكر للحقائق لا يعالج المشكلة، لأنّ الحالة السلبية قد تعبّر عن نفسها في صورة الرغبة في الانعزال، أو الحقد، أو الغضب، وهذه كلها أمور عفوية.

فأنا وأنت نغضب، ونكره، ونتذمر، ونضجر.. وكلها حالات تعترينا ولا يمكن التخلص منها بشكل مطلق، ولكن بالإمكان التحكم بها، والسيطرة عليها لكي لا تؤدي إلى مضاعفات سيئة.

وهنا سؤال يقول: هل الحالة السلبية طاقة مدمّرة فعلاً، أم يمكن أن تتحول إلى طاقة بنّاءة؟

والجواب: مبدئياً، التعادل هو المطلوب. فإذا عدنا إلى مثال الذرة نجد؛ أنّ التعادل بين الحالتين المتناقضتين في انجذاب الألكترونات إلى المركز، وهروبها منه، هو السبب في الحفاظ على قوة الذرة وتماسكها، كذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان حيث أن

حالة التعادل بين الروح الإيجابية، أي الانجذاب إلى الناس، والسلبية التي تعني الهروب منهم، هي التي تحافظ على تماسكه الداخلي.

ومع قطع النظر عن النتائج السلبية التي ترافق عادة الحالات السلبية إلّا أنه لابدّ من القول أنّ للحالة السلبية طاقة هائلة كما هي للحالة الإيجابية، فإذا وُجّهت بالشكل الصحيح كانت بنّاءة وإلّا كانت هدّامة.

لنأخذ الغضب على سبيل المثال فإنه حالة طبيعية في الإنسان، ومن غير الممكن أن تنفصل عنه بشكل مطلق، فليس المطلوب هو أن تكون كالطماطم في الخضار التي تنسجم مع كل أنواع الطعام، فأنت بشر وتتداخل في داخلك كل من حالتي الانجذاب والانفلات، وفي داخلك أيضاً طاقتان: طاقة الحب، وطاقة الكره، وتتفرع منهما أيضاً حالتان هما: التولّي، والتبرّي.. وهذا يعني أن عليك معرفة من تحبّ، ومن تكره.. ومن تتولى، وممن تتبرأ، ومع من تنسجم وممن تهرب.

وكما أنه ليس جميع أفراد المجتمع صالحين، وليس كل ما في الحياة صالح للاستفادة، لذا لابدّ أن تتعلم كيف تتخلص من النفايات؟ كما لابدّ أن تتعلم كيف تستقطب الأشياء النافعة؟ وهذا يتطلب الإستفادة من كل الطاقات الموجودة في الإنسان ولكن في الاتجاه الصحيح، لأن الحياة قائمة على الحالتين: الإيجابية والسلبية.

ألا نجد كيف أنّ صحة الإنسان قائمة على دعامتين: دعامة جلب ما ينفع، ودعامة دفع ما يضرّ، فكما أنّ في الحياة كلٌ من النافع والضار، والخير والشر، فكذلك المجتمع يتشكل من الأفراد النافعين والضارّين.. والأخيار والأشرار.. والصالحين والطالحين، ولذا لابدّ أن نعرف كيف، وأين نوجّه الطاقة السلبية؟ وكيف، وأين نوجّه الطاقة الإيجابية؟

فينبغي مراعات الحدود العقلية والشرعية للتحكم بهاتين الطاقتين. فإذا تجاوز الحبّ لأحد أفراد البشر

حدوده، وتحول إلى نوع من العبودية والخضوع المطلق فسوف يكون مدمّراً.

إذ ليس المطلوب أن تذوب في غيرك وقد خلقك الله (عزّ وجلّ) حراً.. والبغض أيضاً يجب أن لا يتعدى حدوده حتى لأشدّ أعدائك، لأنه سيوقعك في المهالك، بل يجب أن تبغض بقدر، وتحب بقدر.

وإذا سلّمنا بحقيقة أنّ الناس يستجيبون للطاقات السلبية أكثر من استجابتهم للطاقات الإيجابية بحيث أنهم يغضبون أكثر مما يحبون مثلاً، فنعرف حينئذ ضرورة التحكم في النفس من أجل توجيه هذه الطاقات بشكل سليم، ذلك أن الطاقة السلبية تشبه إلى حد كثير الطاقة الموجودة في الزلازل والرياح العاتية، فإذا استطعنا السيطرة عليها فسوف نكون قد حصلنا على مخزون هائل من الطاقات ويمكن أن نضعها في خدمة البشرية، وإذا لم يتم توجيه تلك الطاقات فإنها ستتحول إلى طاقة مدمرة.

وإذا تمكن أحد من التحكم بوتائر غضبه، ووجهها وجهة سليمة فإنه سينتفع من ذلك كثيراً، فلو انتابته حالة من الغضب على عادة سيئة فيرتدع عنها بقوة غضبه، فهنا يصبح الغضب كالكابح في السيارة حيث ينفع ولا يضر.

وهكذا فإنّ إقامة التوازن في الانفعالات الإنسانية ــ سواء كانت إيجابية أو سلبية ــ هو المطلوب. غير أن الناس ينظرون إلى الحالة السلبية نظرة قاتمة لأنها كثيراً ما تتجاوز حدودها. أو لأنّ الناس لا يلتفتون إلى إمكانية توجيهها، ولهذا فإن الأنبياء أكثروا من النصيحة للناس بأن يتحكموا في انفعالاتهم مثل الحديث الذي يقول: «ثلاثة من كنّ فيه استكمل الإيمان؛ من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قدر لم يأخذ ما ليس له»[1]، أي ليس مطلوباً أن لا نحب ولا نبغض بل المطلوب أن نتحكم في حبنا وبغضنا، لأن الحياة تتطلب الغضب وتستوجب البغض

(١) غرر الحكم، ٤٦٦٨.

في بعض الأحيان. لأن الغضب، هو نتاج غريزة الانفعال ضد المواقف السلبية، وضد الاعتداء الذي يوجه إليه، وإظهار الغضب في موضعه المناسب لا ينافي العقل، ولا يُعد خروجاً عن اللياقة الأدبية، إذ لابدّ أن يرفع المرء عقيرته ضد أي عدوان على ماله، أو عرضه، أو شرفه، فليس من المعقول أن يتعرض الإنسان للاعتداء ولا يغضب، أو يتعرض لمحاولة القتل ولا يدافع عن نفسه، بينما حتى الحشرات زُوِّدت بما تدافع به عن نفسها.

وقد يقول قائل: أين إذن موضع الحلم هنا؟

والجواب: أنّ له موضعاً مناسباً، إذ ليس الحلم عبارة عن تبلّد العواطف وتحجّر الأحاسيس، وإنما هو لمواجهة من يكون جاهلاً غير عالم، ويحتاج إلى الإصلاح والتربية، عند ذاك يؤدي الحلم معه إلى هدايته وإصلاحه، وكذلك الأمر مع أمور مثل الرفق، واللّين، فلها مواضعها تماماً كما أن الشدة لها موضعها..

والحكيم هو من يضع كل شيء في موضعه.

تماماً كما هو الأمر مع المنطق والسيف، فأنت لابدّ أن تعرف أين تستخدم المنطق، وأين تستخدم السيف، فوضع «الندى» في موضع «السيف» كوضع السيف في موضع الندى، كلاهما يؤدي إلى عكس المطلوب.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «إذا كان الرفق خُرقاً، فإن الخرق يكون رفقاً»[1]، كما أنّ التكبّر على عباد الله مذموم، ولكنّه على المتكبرين تواضع عند الله، كما يقول الحديث الشريف[2].

(١) ألف كلمة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
(٢) غرر الحكم، ج ٣، ص ١٦٩.

تذوَّق جمال الكون

كما أنّ العقل منحة الله الكبرى للإنسان، فإنّ الذوق هبته العظمى له. واستخدامهما معاً يجعل الحياة أكثر سعادة وجمالاً.

فالله تعالى لم يخلق المعقولات وحدها بل أرفقها بالجمال، فما من مخلوق إلّا والجمال يصاحبه، فالأزهار تجذب الأنظار لشدة جمالها كما إنها تغذي الحشرات أيضاً، فالطبيعة التي خلقها الله يتلاقح فيها الجمال والعقل.

وكما أن الله خلق العقل، والذوق، فلابدّ أن نتخلق بأخلاق الله، فنجمع بين استخدام العقل العلمي والذوق

الجمالي، وهذا ما يميّز الإنسان عن الحيوان، لأن الحيوان ليس مذواقاً فهو يأكل عندما يجوع من دون اهتمام بالأجواء المحيطة بطعامه وأكله، على عكس الإنسان الذي يولي ذلك أهمية بالغة، فيستخدم الطاولة والشموع والمكان النظيف، فالحيوان يريد شيئاً يملأ به معدته ويكتسب منه القوة والنشاط، بينما الإنسان يرغب بأن يضيف شيئاً من الجمال إلى ذلك كلّه.

غير أنّ الذوق استُخدِم بإفراط وتفريط في العالم؛ فحينما جُعل الجمال فوق «القيم» في الغرب وطغى الذوق على المبادئ كان ذلك إفراطاً، أما حينما أُلغي دور الجمال في الشرق، واعتبره البعض جريمة، وعامله معاملة الخطيئة، كان ذلك تفريطاً.

ففي الشرق يصب البعض مثلاً كل اهتمامه على أساس البناء ويترك واجهة المنزل من دون تلوين أو

تجميل، وتُبنى المدن على أساس الكم من دون أي اهتمام بالنوع، فترى مدناً كبيرة بشوارع صغيرة، وحدائق قليلة، فلا يشعر الإنسان فيها بأي نوع من الانشراح والسعادة.

مع العلم إن رسول الله ﷺ يقول: «إن الله جميل يحبُّ الجمال ويحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس»[1].

فلماذا إذن نهمل الظاهر ولا نستخدم الذوق في أمورنا الحياتية؟

لقد حدث ذلك لي وأنا جالس في شقة مطلة على البحر الأبيض المتوسط، وكان الجو بارداً في الخارج، وعندما فتحت الشباك رأيت البحر يفترش الأرض بلا حدود، بينما كانت أشعة الشمس ترسل أشعتها من وراء

---

(١) كنز العمال، خ ١٧١٦٦.

السحاب، وبعض الطيور تحط على البحر حيناً وتطير حيناً آخراً، وكانت الرياح تتلاعب ببعض الأشجار المتناثرة وبأوراقها..

.. فرأيت حكمة بلا حدود، وجمالاً بلا نهاية، وإبداعاً بلا مثيل، كما رأيت هيمنة الله (عزّ وجلّ) على الكون وتدبيره الحكيم في خلقه.

تُرى قبل خلق البحر، هل كان يخطر ببال أحد هذا الإبداع الجميل، وهذا العلم العظيم، وهذه القدرة الكبيرة؟

إننا نتصور عادة ما نراه، وما لم نره لا يمكننا تصوره، ولكننا في أحيان نكرر صوراً خيالية من بعض ما خلق الله (عزّ وجلّ) فننحتُ تمثالاً أو نرسم لوحةً ونفتخر بما قمنا به من إنجاز، فتأتي اللوحة مشابهة للواقع، وإن كانت فاقدة للروح والحياة.

وسرُّ الحكمة في خلق الكون نابع من عدم وجود تصور سابق لهذا الخلق، ولا مثيل ولا شبيه لهذا التنظيم الفذ المنزّه عن الأخطاء.

فالله بديع السماوات والأرض، وهو جميل ويحبُّ الجمال، وقد خلق الخلق بلا نموذج سابق، ولا مثال لاحق.

إنّ الله سبحانه خلق الكون وجعل جماله متجدداً، ففي كل يوم يشرق فجر جديد، ويطل صباح مشرق جميل، ليبعث الأمل والرجاء في النفس، وليحكي مولد يوم جديد سعيد. والله سبحانه زيّن قبة السماء في الليل بقناديل مضيئة، تغمز فيما بينها، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1].

والله تعالى لم يخلق الجمال فحسب، بل أنعم على

---

(١) سورة تبارك، الآية: ٦.

الإنسان بنعمة البصر ليرى جمال الكون والطبيعة، ثم أعطاه الشعور والإحساس ليتمتع بهذا الجمال، ويشعر بنشوة لا أفضل ولا أجمل منها عندما يسمع غناء البلابل ونشيدها في الحقول وهو ينظر إلى الأزهار المتفتحة، وينظر إلى الطيور، ويسمع خرير المياه.

يقول الشاعر:

أقبل الصبح جميلاً
يملأ الأفق بهاهْ
فتمطّى الزهرُ والطـ
ـير وأمواج المياهْ
قد أفاق العالم الحـ
ـيُّ وغنّى للحياهْ
فافيقي يا خرافي
وهلمّي يا شياهْ
واتبعيني يا شياهي
بين أسراب الطيورْ

وامــــلأي الــــوادي ثــــغـــــ

ـاءً ومــــراحــــاً وحـــــبـــورْ

واسـمـعـي هـمـس الـسـواقـي

وانـــشـــقـــي عـــطـــر الـــزهـــورْ

وانـــظـــري الـــوادي يـــغـــشّـــيـــه

الـــضـــبـــاب الـــمـــســـتـــنـــيـــرْ

أقـــبـــل الـــصـــبـــح يـــغـــنـــي

لـــلـــحـــيـــاة الـــنـــاعـــســـهْ

والـــرُبـــى تـــحـــلـــم فـــي

ظـــل الـــغـــصـــون الـــمـــائـــســـهْ

* * *

إن الله جميل ويحبّ الجمال، ولم يحرم التمتع بجمال الطبيعة، ولم يحرم الطيبات، فلماذا لا نتذوق جمال ما خلق؟ ولا نستخدم أذواقنا فيما نصنع؟

بين الأهداف المثالية
والتعامل مع الواقع

الحياة قائمة على الحقائق لا التمنّيات. ومن يرغب في تغيير الحياة لمصلحته من دون التعامل مع تلك الحقائق، فسوف يحصد خيبة أمل لا مثيل لها.

وما من إنجاز في هذه الحياة، سواءً في التاريخ القديم أو في التاريخ الحديث، إلا وكان قائماً على أمرين:

الأول: إمتلاك أصحابه أهدافاً كبرى، وتطلعات سامية.

الثاني: الاعتراف بالواقع والانطلاق منه.

وما أحوجنا ونحن نعيش في عصر انفلاق الذرّة والانترنت، أن نكون واقعيين في تصرّفاتنا وأعمالنا وجميع مناحي حياتنا.

إنّ الاعتراف بالواقع الموجود والانطلاق منه، والتعامل مع الحقائق التي أقام الله السماوات والأرض عليها من صفات العظماء.

فلأنهم يتعاملون مع الأمور بجدّية فإنهم يضعون الأشياء مواضعها، بعيداً عن الأحلام الوردية والأماني الفارغة.

غير أنّ ذلك لا يعني أنهم لا يملكون أهدافاً سامية أو أنهم ليست لهم أحلام كبرى.

إنّ العظماء ينظرون بعيونهم بعيداً، ويحاولون بأيديهم الوصول إلى ما يرونه. ذلك أنّ ما يُرى أبعد بكثير من ما تصل إليه اليدان.

فالعين بالنسبة إليهم تمثّل التطلعات الكبرى، أما

اليدان فتمثّلان الأمور الواقعية. بينما بعض الناس حينما يرى ثماراً يانعة على شجرة باسقة فهو يجلس تحتها متمنياً أن تسقط الثمار في حضنه ليتنعم بها.

لكنّ العظماء حينما يرون الثمار على الشجرة، لا يجلسون تحتها لتسقط الثمار في أحضانهم، وإنما يقومون بتسلّقها حتى يصلوا إلى ثمارها ويتنعمون بها.

وإذا كان النوع الأول من الناس يطول انتظاره وقد لا يحصل على مبتغاه، إلّا أنّ النوع الثاني سرعان ما يصل إلى ما يبتغيه ويتنعم به.

حقاً إنّ الله زوّد الإنسان بالخيال لكي يتطلع إلى أبعد ما في الكون بخياله، كما زوّده بالعقل لكي يسعى لتحقيق ما يمكن تحقيقه من تلك التطلعات.

والحكماء يضعون تطلعاتهم وأمانيهم في أماكنها، كما يضعون واقعيات الحياة في أماكنها أيضاً، لأنهم

يعرفون أن هنالك حقائق على الأرض لابدّ من أخذها بعين الاعتبار لتحقيق أمانيهم.

تصوّر أنك تريد الخير لأولادك فتضع لهم أهدافاً كبيرة، وتتخيّل لهم مواقع معينة في المستقبل، لكنك للوصول إلى تحقيق ما تريد لهم لابدّ أن تضع منهاجاً عملياً يأخذ الحقائق بعين الاعتبار. وإلّا فإنك سوف تصطدم بعقبات لا يمكن أن تنفذ منها.

وعلى كل حال فإنّ الحقائق هي الحقائق، والوقائع هو الوقائع. ومن أراد أن يصل إلى أهدافه فلابدّ أن يعترف عملياً بجميع الحقائق، وأن يستفيد من إمكاناته الموجودة لتحقيق الواقع الذي يصبو إليه.

إنّ الصور الخيالية التي يرسمها البعض في فكره، لن تجد طريقاً إلى أرض الواقع، إلّا بالخضوع لحقائق الكون وسنن الباري عزّوجلّ، ومن ثم تجميع الطاقات الكامنة في الحياة لتحقيق ما يريد.

ومن الأمور التي لابدّ من أخذها بعين الاعتبار هو أن نأخذ الناس كما هم، وليس كما نرغب في أن يكونوا.

فمثلاً كثير من الناس يرغبون في أن يكون أصدقاؤهم كالملائكة، لا يخطئون ولا يؤذون ولا يخونون، لكن الله (عزّ وجلّ) لن يُنزل الملائكة إلى الأرض لكي يصادقهم هؤلاء.

إنّ الله خلقنا متساوين، وكما في الحديث فإن «الناس سواسيةٌ كأسنان المشط» وليس بينهم أحد من الملائكة، فلماذا يطلب أحدنا أن يكون أصدقاؤه بلا أخطاء ولا خطايا؟

إنّ علينا أن نتعامل مع الآخرين كما نتعامل مع أنفسنا، ونرضى لهم بما نرضى لأنفسنا، فكما نخطأ نحن فإنهم يخطئون.

وكما نصيب فإنهم يصيبون، وعندما نصادق معهم

فلابدّ أن نصادق بعينين مفتوحتين، لا أن نثق بهم كل الثقة وكأنهم ملائكة.. ولا أن نسيء الظن بهم وكأنهم شياطين. فالبشر هم خليط من الخير والشر، كما أنّ الحياة خليط من النور والظلمة.

ومن هنا لابدّ أن نكون واقعيين في التعامل مع الناس، وكذلك الأمر في كل عمل نريد الإقدام عليه، سواء في المجالات التجارية، أو الاجتماعية، أو السياسية.

إنّ الصور الخيالية لا وجود لها: لا في عالم الأشخاص، ولا في عالم الأعمال، ولا في عالم الأفكار. فمن يريد بشراً بلا أخطاء، وعملاً بلا سلبيّات، فمن الأفضل أن لا يقوم بأي عمل.

يقول الإمام علي عليه السلام في عهده إلى مالك الأشتر (رض): «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم

فإنهم صنفان: إما أخ لكَ في الدين وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العهد والخطأ».

أي أنّ الذي يريد رعايا بلا زلل، فكأنه يتمنى وجود الشمس في الليل، أو القمر في رابعة النهار، لأن الرعية يصدر منهم الزلل على كل حال.

ثمّ إنّ من يريد تحقيق مآربه فلابدّ أن يهيّئ أسباب ذلك، لأنّ الدنيا التي نعيشها هي دنيا الأسباب والمسببات، لا دنيا الأحلام والأمنيّات.

فإن أردت النجاح فكن واقعياً في عملك، ومثالياً في طموحاتك.

فلا تبحث عن عمل بلا نقص، ولا عن أصدقاء بلا عيوب، ولا عن انجاز بلا عقبات، ولا عن نجاح بلا مشاكل.

لقد أراد الناس في العهود القديمة أن يكون الأنبياء كالملائكة، فلا يأكلون الطعام، ولا يمشون في الأسواق ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1].

وبعضهم لم يؤمن بالأنبياء لأنهم تزوّجوا وأنجبوا، وأكلوا وشربوا وماتوا.

إلّا أنّ الواقع كان غير ذلك، لأنّ ما عدى الله مخلوق عاجز، يحتاج إلى أن يمدّه الله (عزّ وجلّ) بأسباب البقاء، والتي منها الطعام والشراب، والمسكن والملبس.

إنّ علينا أن نأخذ الأمور بإيجابية، ولكن ليس بمعنى أن لا نرى السلبيات، بل بمعنى أن نأخذ حقائق الأمور بعين الاعتبار، وأن ننجز أعمالنا في خضم المشاكل بروح إيجابية، ونظرة واقعية، وتطلعات بعيدة المدى.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

كيف نقطف ثمار المستقبل؟

من يريد النجاح فلابدّ أن يقفز من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل.

وذلك بأن يضع عيناً واحدة على الماضي، وعينين على المستقبل.

قد يقول قائل: ليست لي إلّا عينان فقط، فكيف أضع واحدة على الماضي، واثنتين على المستقبل؟

وأقول: صحيح إننا لا نملك إلّا عينين، ولكن باستطاعتنا أن نضع عيناً على الماضي، ونضع نفسها مع الأخرى على المستقبل، وبذلك نكون قد وضعنا عيناً على الماضي وعينين على المستقبل.

أما لماذا نضع عيناً على الماضي، فلكي نأخذ منه العبر والدروس، حتى نستفيد منه لحاضرنا، وننتقل منه إلى مستقبلنا، لا أن نعيش في الماضي الذي قد انتهى، ولا يمكن تغييره بأي شكل من الأشكال.

نحن قادرون على تغيير المستقبل بسهولة، أما الماضي فقد مضى وقته ولزم أجله، وما نملكه فيه، فهو أن نفهم عبره ودروسه ونتعلم حِكَم رجاله، ثم ننطلق منه إلى حاضرنا، ومن حاضرنا إلى المستقبل الذي يجب علينا صنعه بنشاطنا، وعملنا، وإنجازنا.

علينا أن نتعلم من الأنبياء، فقد ركزوا على الآخرة، باعتبارها هدفاً نهائياً لوجود الإنسان.

فهم تجاوزوا الزمان الآتي إلى ما بعده، لأن المستقبل لا ينحصر في الحياة الدنيا وحدها، بل يمتد إلى ما وراء الموت. والعمل الصالح هو في الواقع نوع من الاستثمار في المستقبل.

فأنت حينما تُقدم على عمل تعرف مسبقاً أنك لن تحصد نتائجه في دنياك، وإنما تدخّره لما بعد ذلك بكثير، فأنت تعمل للمستقبل.

وبهذا المفهوم فإنّ استثمار المستقبل يعني القيام بالعمل الصالح اليوم، ولذلك قيل: إنّ ساعة من هذه الدنيا تساوي ساعات من عالم الآخرة لأنك بساعة من العمل هنا، تملك ساعات من الثواب هناك.

* * *

ويمكن تقسيم الناس بالنسبة إلى ارتباطهم بالماضي أو المستقبل إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: هي المجموعة التي تتعلق بالماضي، وتعيش فيه، وتعمل له، وهؤلاء لا دنيا لهم ولا آخرة، وهم الذين أدانهم ربّنا في كتابه وقال عنهم: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[1]؟

(١) سورة المائدة: الآية: ٥٠.

الثانية: هي المجموعة التي تهتم بحاضرها فقط، من دون التفكير في الماضي أو المستقبل. فالمهم عندهم المصالح الآنيّة، واللذات الحاضرة، ولا يهمهم لا عبر الماضي، ولا ما سيحدث في المستقبل.

الثالثة: هي المجموعة التي تهتم بمستقبلها في الدرجة الأُولى، من دون إهمال للماضي، ولا غياب عن الحاضر، فهم يستثمرون طاقاهم في أمور ترتبط عادة بمستقبلهم، ولكن مع أخذ العبرة من الماضي، والاستفادة من الحاضر.

أمّا كيف نستثمر في المستقبل؟

فهو بأن نجعل النتائج المستقبلية ميزاناً لأعمالنا، فكل عملٍ ينفع مستقبلاً نهتم به، وكل ما لا ينفع فيه نهمله، وكل عمل يضرّ به نتجنّبه.

لقد قال رسول الله ﷺ لرجل استنصحه: «إذا هممت

بأمر فتدبّر عاقبته، فإن كان خيراً فامضه، وإن كان شرّاً فاتركه».

وهذا يعني أن ننظر إلى جميع الأمور بعين المستقبل، وأن نأخذ من الماضي عبره، وبذلك نضع عيناً على الماضي وعينين على المستقبل.

الفهرس

اهتم بأعجب ما فيك ٧

في الأزمات اصنع شخصيتك ١٧

ضع ميزاناً لأعمالك ٢٩

علّم نفسك لغة جديدة ٣٦

لا تُظهر كلَّ علمك فتظلم العلم ٤٧

تصحيح المعتقدات ضمانة لسلامة العادات ٥٣

أين موقعك من الزمن؟ ٥٦

الدنيا بين الغلبة عليها أو الهزيمة فيها ٦٧

كيف تستفيد من الأسفار وتتمتع فيها ٧٣

كن مبتسماً فهذا من جمال الروح ٨٧
كيف تتعامل مع التوافه؟ ٩٤
لا تتعامل مع الدمى الصغيرة ١٠٥
قرر أن تكون عظيماً ! ١٠٩
استخدام الطاقات السلبية والإيجابية ١٢٢
تذوق جمال الكون ١٣٠
بين الأهداف المثالية والتعامل مع الواقع ١٣٧
كيف نقطف ثمار المستقبل؟ ١٤٥